المديح النبوي في الشعر الأندلسي
عهد الموحدين

منجد مصطفى بهجت
مدرس

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

كانت وماتزال شخصية الرسول (صلى الله عليه وسلم) من اكثر الشخصيات تأثيراً في عصرها والعصور التي تلته ويتجلى أثر شخصيته في الأدب العربي واضحاً، مشرقيه ومغربيه، فقد ظل معيناً ثراً يستلهم منه الادباء، صورة المثل الاعلى، اذ كان جماعاً للقيم والاخلاق الرفيعة إلى جانب خصوصيته بالوحي والرسالة التي ابلغها، فدخل الناس فيها افواجاً.

وبعد مرور أربعة عشر قرناً على هجرة الرسول الكريم تتجدد ذكريات المسلمين بمجدهم العتيد الذي شاده الآباء والأجداد، على تقوى من الله ورضوان فأسسوا تلك الحضارة السامية، وفي خضم الاحتفال بهذه المناسبة، يتناول بحثي زاوية من زوايا هذه الحضارة في عصر الموحدين (*) بالاندلس مختصاً بمديح نبي المسلمين «محمد» صلى الله عليه وسلم.

والبحث يؤكد من خلال موضوع شعر المديح النبوي على ان رافد الدين لم يتوقف او يتأخر عن رفد الثقافة العربية بشكل عام، والادب العربي بشكل خاص، خلافاً للصورة المشوهة التي تصدر عنها في بعض الدراسات غير المكتملة حين تجعل أثر الاسلام عابراً على الادب العربي.

لقد تنوعت أبعاد هذا التأثير على الشعر الاندلسي في عهد الموحدين من جوانب كثيرة تتصل باللغة والاسلوب والمعاني والأفكار التي تندرج ضمنها قصيدة الشعر، وشعر المديح النبوي يكشف لنا عن علاقات وثيقة ووشائج متينة الفت بين شخصية الرسول (صلى الله عليه وسلم) والشعراء انفسهم فقد كان حجم هذا التأثير كبيراً من خلال كثرة الشعراء الذين مدحوا الرسول (ص) وحجم هذا الشعر قياسا إلى أشعارهم الاخرى — اذ لم يكونوا بمنأى عن أكبر مصدر من مصادر للشريعة الاسلامية بعد القرآن الكريم — الحديث الشريف والذي هو جملة اقوال الرسول (صلى الله عليه وسلم) وافعاله.

كذلك تفاوت أثر شخصية الرسول (ص) في اشعارهم، الا أن القاسم المشترك بينهم هو أن اكثرهم — إن لم يكن جميعهم — أفاد من شخصيته المتكاملة من ناحية — ومن احاديثه،

(*) الدولة الموحدية تعود تسميتها إلى دعوة التوحيد وصفاء العقيدة، التي حمل لواءها ابو عبدالله المهدي محمد بن تومرت (٤٨٥— ٥٢٤هـ) واول من تولى الحكم من الموحدين ابو محمد عبد المؤمن بن علي الكومي الذى قضى على حكم المرابطين قضاء مبرماً سنة ٤٤١ وقد وليه في الحكم ثمانية من افراد اسرته، واستمر حكم الموحدين حتى سنة ٦٤٠هـ، الا ان عهد الضعف والانحلال كان بين سنتي ٦٢١ و٦٦٨ كما يرى محقق المعجب للمراكشي. المعجب ٤١٥، التاريخ الاندلسي ٥١١.

موجهة ومقومة من ناحية أخرى – وقد كان هذا التأثير كبيراً ، في شعر شعراء الزهد والتصوف ، ولم ينحسر عن الشعراء الاخرين كذلك ، استمع إل ابي زيد عبد الرحمن السالمي يقول (١) :

تَسأيتُ عن عيسى بحبِّ محمد ولولا هُدى الرَّحمن ماكنتُ أهتدي
وما عن قلى مني سلوتُ وإنما شَريعةُ عيسى عطّلت بمحمدِ

فقد كانت الأندلس قسيماً للمشرق في مبلغ العناية بعلوم الحديث والاشتغال بجمعه وتصنيفه وقد اوضح بالنثيا جهود علماء الاندلس في هذا المضمار (٢) ، وإلى هذا أشار ابو العباس العزفي (٣):

أهل الحديث عصابة الحق فازوا بدعوة سيد الخلق
فوجوههم زهرٌ منضّرةٌ لألاؤها كتألق البرق
ياليتني معهم فيدركني ماأدركوه بها من السبق

لقد أولت للدراسات الأدبية شعر المديح النبوي عنايتها ، وفي مقدمتها ، دراسة الدكتور محمد صلاح الدين عيد « المدائح النبوية في الشعر العربي حتى البوصيري (٤) » واما دراسته في الشعر الاندلسي ، فلم يتوفر لها – على حد علمي – بحث متكامل ، وانما وردت ضمناً في بعض البحوث (٥) :

لم يكن المديح النبوي عارضاً في موضوعات الشعر الاندلسي ، انما كان يضرب بجرانه منذ عصر مبكر ، حتى أن الدكتور محسن جمال الدين يقول : « فلا يخلو كتاب من كتب

---

(١) المقتضب ٦٠ .
(٢) ينظر تاريخ الفكر الاندلسي ٣٩٣ – ٤٩١ .
(٣) نفح الطيب ٢/٣٦ .
(٤) اطروحة دكتوراه بكلية الاداب – جامعة القاهرة ١٩٧٩ ، كذلك ينظر بحث الدكتور عبد الحميد المسلوت « المدائح النبوية في الادب العربي ، مجلة كلية الشريعة العدد الثاني بغداد ١٩٦٦.
(٥) ينظر : الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالاندلس ص٢٦٩ وما بعدها ، للدكتور محمد مجيد السعيد وزارة الاعلام بغداد ١٩٨٩ ، كذلك مقالات الدكتور محسن جمال الدين في مجلة البلاغ بغداد ١٩٦٧ « نظم العقدين في مدح سيد الكونين ، لابن جابر الهواري ، الادب الاندلسي في عهد الموحدين ، الدكتور حكمة الاوسي ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٩٧٦.

الادب القديمة أو ديوان شاعر أندلسي معروف الا ويذكر كتاب الله ويتوسل إلى رسول الله « صلى الله عليه وسلم (١) » ويرى الدكتور احسان عباس ان شعر المدائح النبوية بما فيها الاشعار التي تتحدث عن مشاعر الحنين إلى الحجاز ، أحد موضوعات الشعر التي تحققت فيها الرقابة الذاتية لدى الشعراء بالتعفف عن هجر القول بقوة الوازع الديني والانطلاق من مفهومات اخلاقية دينية (٢) :

ولسنا بصدد الوقوف عند هذا الفن قبل عهد الموحدين (٣)

وسنحاول أن نلم المامة سريعة بالكتب والدواوين والمطولات الشعرية التي ألفت فيه عليه الصلاة والسلام، ضمن الاطار الادبي، مدحه والثناء عليه، والاشادة بسيرته وأخلاقه ومعجزاته وآثاره الباقية فمنها :

١ — القرارة اليثربية المخصوصة بشرف الأحناء القدسية، (٤) لابي القاسم محمد بن علي الهمداني ابن البراق (ت٥٩٦هـ) ومطلعها:

---

(١) مجلة البلاغ ، مقال الدكتور محسن جمال الدين العدد الخامس ص٧٦ .

(٢) الشعر الاندلسي بين الاتجاه الاخلاقي وطلب المتعة ص١٨ بحث الدكتور احسان عباس في مجلة الثقافة العربية العدد ٩، ليبيا ايلول ١٩٧٥ .

(٣) نشير في هذا المجال إلى أن أقدم الأشعار الاندلسية في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام تتمثل في ابيات عبد الملك بن حبيب (ت٢٣٩هـ) في قصيدتين مطلعهما :

للـه در عصـابـة صـاحبتهـا نحو المدينة تقطع الفلوات

و : ياخير مبعوث له طلعة نور الهدى فيها أثر العيون

(نفح الطيب ١/٤٦)

كذلك لابن السيد البطليوسي (ت٥٢١هـ) قصيدة مطلعها :

اليلـك أقـر من ذلـي وذنـبـي فـأنـت اذا لقيت الله حسبي

(مجموع شعره مجلة المورد٦/١/٧٩)

وأبرز شعراء عصر المرابطين الذين مدحوا الرسول الكريم ، ابن العريف الصنهاجي (ت٥٣٦هـ) في ديوان سماه « مطالع الانوار ومنابع الاسرار » أورد منه صاحب نفح الطيب ثلاث قصائد ، ولابن ابي الخصال (ت٥٤٠هـ) قطعة شعر كتبها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، عن أحد الزمنى ، فلما وضعت عند قبره برىء المقعد بإذن الله ، وقد قرأها على ابن خير الاشبيلي (ت ٥٧٥هـ) في منزله (فهرسة ابن خير ٤١٨) ، ولابي بكر بن العربي (ت٥٤٣هـ) ديوان كبير جداً ، اورد فيه النبي (ص) ، ولم نقف على شيء من ابياته (البغية ٩٣).

(٤) برنامج شيوخ الرعيني رقم ٢٧٤ ،الذيل والتكلمة ٦/٤٦٨.

بالهضب هضب زرود او تلعاتها شاقتك عاكفة على نغماتها

٢ ــ نتيجة الحب الصميم وزكاة المنثور والمنظوم في مثال النعل النبوية (١) ، لابي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي (ت ٦٣٤هـ).

٣ ــ «الدرّ المظم في مولد النبي الاعظم» (٢) القاضي ابو العباس احمد بن محمد العزفي ، اكمله ابنه ابو القاسم محمد (ت بعد ٦٧٧هـ)

٤ ــ «خلاصة الصفا في خصائص المصطفى» (٣) قصيدة بارعة طويلة تزيد على ثلثمائة وعشرين بيتاً لاحمد بن محمد بن ميمون الاشعري (من رجال القرن السابع الهجري) ومطلعها :

لاحمد خير الخلق أهدي تحيتي محمداً الامي بحكمٍ وحكمةٍ

٥ ــ نظم الدرر في مدح سيد البشر ، والوارد العذب المعين في مولد سيد الخلق اجمعين (٤) للشيخ الفقيه القاضي ابو عبدالله محمد بن عبدالله بن ابي بكر العطار ، وهما كتاب واحدفرغ من تأليفه سنة ٦٩٦هـ، أورد منه المقري ثماني قصائد :

ولقد زاد حجم التأليف والنظم في العصور التي اعقبت عصر الموحدين على نحو واضح ، أن هذه الكتب والمؤلفات تدور في مجملها حول مديح الرسول (صلى الله عليه وسلم) وذكر شمائله واخلاقه وفضائله ، ومعجزاته ، ومبلغ تعلق المسلمين به ، وتفانى الشاعر في تقديم ضروب الوفاء والطاعة له وطلب الشفاعة منه ، والتلذذ بذكره والصلاة عليه ، وبعض هذه القصائد مفقودة ، ومن خلال مابين ايدينا منها نستطيع أن نحدد ابرز ثلاثة موضوعات ، ساق الشاعر قصائده الشعرية فيها :

١ ــ الشوق والحنين

٢ ــ وصف اثاره الشريفة

٣ ــ المديح الخالص

وليست هناك حدود فاصلة بين هذه الموضوعات ، وانما تشترك في القصيدة الواحدة وتشتبك اشتباك اغصان الشجرة ، والمعول هو الطابع الغالب على القصيدة والاتجاه العام الذي يهيمن عليها ، وسنستجلي ابعاد هذه الموضوعات بشكل تفصيلي فيما يأتي :

---

(١) فتح المتعال ١٤٤ .

(٢) ازهار الرياض ٣٧٤/٢

(٣) الذيل والتكملة ٥٢١/٢/١

(٤) نفح الطيب ٥٤٩/٧

أ- الشوق والحنين :

كان لتعلق المسلمين بشخص الرسول الكريم أثر كبير ، في تأجيج عاطفة الشوق إلى زيارة قبره الشريف – ولاسيما في المواسم الاسلامية كالحج ، اذ تكون زيارته مكملة لاداء فريضة الحج ، وينطوي تحت الشوق عواطف الحب والاخلاص للرسول عليه الصلاة والسلام فيصف الشاعر معاناته الوجدانية – وآلامه العميقة الغور الناجمة عن الفراق بعدم تكرار الزيارة ، ونفاذ صبره وضيق ذرعه بذلك في أبيات يلتزم فيها مالا يلزم (١):

سكّـــان طيبـــة قلبـي عن منهج الصّبر جـــارا
أشكو اليكـــم زمـــانـاً عليّ بالبين جـــارا
ودمع عيني عليكـــــم لأدمع المـــزن جـــارا

وهذه الزيارة تعني لديه اشياء كثيرة لأنها مصحوبة بالسعادة (٢) :

وإن السّعـــادة مضمونـــةٌ لمن حلّ طيبـــة أوزارهـــا

وهي كذلك بالنسبة لابي بكر الغافقي:

وهـا أنذا بطيبـةَ في نعـــيمٍ بقربِ المُصطفـــى حتى أراكـا(٣)

وحين تتاح لابن جبير (ت ٦١٤هـ) أسباب الزيارة وتنهيأ، يصف لنا فرصته العظيمة بتحقيق أمنيته العزيزة فيقول ، وقد شارف المدينةالمنورة على ساكنها الصلاة والسلام ،مشيراً إلى النار الموسوية التي تهدي السّبيل في مطلع القصيدة يحكي لنا فيها وقائع سفره لاداء الحج وزيارة الرسول الكريم (٤) :

أقول وآنست بالليـــل نـــاراً لعلّ سراجَ الهُدى قد أنـــارا

وتمتزج عاطفتا الحنين والشوق ، فتتأججان في صدره ، لتشفّ نفسه وترق وتتأدب بأدب الاسلام في خطاب الانبياء والصالحين ،فلا يجرؤ أن يرفع الظر إلى مقامه ، او يجهر بالصوت بجواره:

---

(١) ابن جبير الاندلسي رقم (١١) .
(٢) نفسه رقم (٢٣) .
(٣) برنامج شيوخ الرعيني ١٩٥، وابو بكر محمد بن احمد الغافقي مجيد لقيه الرعيني (ت٦٦٦هـ) باشبيلية .
(٤) ابن جبير الاندلسي رقم ٢٢ .

جرى ذكرُ طيبة مابيننا ... فلا قلبَ في المركب الاوطارا
حنيناً إلى أحمدَ المصطفى ... وشوقاً يهيجُ الضلوعَ استعارا
ولما حللنا فناء الرسول ... نزلنا بأكرمِ خلقِ جوارا
وحين دنونا لغرض السلام ... قصرنا الخطى وازمنا الوقارا
فما نرسل اللحظ الا اختلاساً ... ولانرفع الطرف الا انكسارا
ولانظهرُ الوجد الا اكتتاما ... ولانلفظ القول الا سرارا
سوى أننا لم نطق أعيننا ... بأدمعها غلبتنا انفجارا

ويقول في قطعة اخرى يلزم فيها مالايلزم، مقرنا شوقه إلى الرسول الكريم بمكة وبيت المقدس في صورة مؤثرة يشبه نفسه بطائر مهيض الجناح لايحوم إلاّ على تلك البقاع ويرجو الوقوع عليها في ابيات انشدها اول رحلته إلى الديار المقدسة (١) :

طال شوقي إلى بقاع ثلاثة ... لاتشد الرحال الا اليها
إن للنفس في سماء الاماني ... طائراً لايحوم الا عليها
قصَّ منه الجناح فهو مهيض ... كلَّ يوم يرجو الوقوع لديها

واما حنينه فهو لايفتأ يشتد به ويضرب باطنابه حين تنقطع به الاسباب وتحول العوائق دون لقاء الحبيب ، وهو مايبدو باجلى معانيه في ابيات ابن جبير وقد تحرك للرحلة الحجازية (٢):

أقول وقد دعا للخير داعٍ ... حننت له حنين المستهام
حرام أنَّ يحلَّ بي اعتياض ... ولم أرحل إلى البيت الحرام
فلا طافتْ بي الآمال ان لم ... أطف مابين زمزم والمقام
فاهديه السلام وأقتضيه ... رضايدني إلى دار السلام

وعاطفتا للشوق والحنين تعنيان امراً واحداً بالنسبة لابي بكر السلاوي (ت٥٦٣هـ) كما هما عند ابن جبير ،اذ كلاهما ينزع هذا المنزع ، فتقف العقبات والعوارض دون رحلة السلاوي فيذكي توديعهم أياه نيران الشوق وتحرّق القلب، في مشهد يثير الشفقة ، ولاسيماوهو يحدث الراحلين، مرتاعاً من الحادي والجمل اللذين يقترنان دائماً بهذه الرحلات ، مشتكياً

(١) ابن جبير الأندلسي رقم ٦٥.
(٢) نفسه رقم ٥٧.

من قلة حوله وضعف حيلته وتعذر الرحيل، يهز منه الاركان ويسعى به إلى حتفه، ودونه فقد المال والاهل والولد(١) :

ياحداةَ العيس مهلاً فعَسى	يبلغُ الصَّب لديكم أملا
لاأخاف الدّهر الاحاديا	ظلتُ أخشاه واخشى الجملا
أودَعوني حرقاً إذ ودّعوا	غادروا القلبَ بهما مشتملا
واذا زرتُم ولاحتْ يثربٌ	فاكحلوا بالنّور منه المقلا
يارسولَ الله شكوى رَجلٍ	عذّرَ الدّهر عليه السُّبلا
ليسَ بي أن أفقد الاهل ولا	أفقدَ المال معاً والحولا
انما بي حين يدنو أجلي	لستُ ألقاك وألقى الأجلا

وقصائد وصف الرحلة إلى المقام الكريم كثيرة، وهي غالبا ماتفيض بمعاني الحزن والوجد، وتصدّع القلب والانين، واطالة الحسرة، وهو ماينجلي في قصيدة ابي الحسن علي بن محمد الجيّاني (ت٦٦٣هـ) فمما انشده عليه ابن عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة (٢):

كيف لاأندبُ عهداً بالحمى	عن جفوني طارقَ النوّم حمى
ياليالينا بذي الغور أما	يتسلىّ القلبُ عنكنّ أما
لاتلوموني على الوجد فما	يغفرُ المضعف باللوم فما

انه يشرك العيس السائرة مشاركة وجدانية في الرحلة، وكأنها تشعر بوجهة سيرها إلى مقام الرسول والبقاع المقدسة :

ياخليليَّ رُويداً إنها	لتعاني الشوق مثلي فاعلما
ومتى أنّوا اشتياقاً وشكَوا	صدّعوا الصّخرَ وشاقوا الأعصما

ويبدو لنا أنه لم يكن في هذه الرحلة :

حسرتاً انْ لم اكنّ في سلكهم وبهم مشتملا منتظما

ويختمها بقوله ملتجئاً إلى الرسول مصليا عليه :

إنّ حسبي في غدٍ أن اغتدى لائذاً بالمصطفى محترما

---

(١) زاد المسافر ١٥٨ – ١٥٩، وتنظر قصيدة ابي بكر محمد بن احمد بن سيد الناس اليعمري الاشبيلي (ت٦٥٩) الغينية في عنوان الدراية ٢٤٨ .

(٢) الذيل والتكملة ٢٩٣/١/٥ والقصيدة كما وردت في ثلاثة واربعين بيتاً .

والشوق إلى الرسول الكريم يتجلى في الشوق إلى آثاره : كما سيأتينا فيما بعد – وبدلاً من ان يذكر هذه الاثار ويتوسل بها ، ويزجي السلام وترفع التحية على البعد ولأبن الابار البلنسي اكثر من قصيدة في التشوق إلى اثار النبي الكريم، تمثال نعله وضريحه(١) والفقيةابو الحسن بن لبال الاميني(ت٥٨٣هـ) هو الآخر يتشوق إلى الرَّوضة المقدسة ويسلم على محمد سيد ولد آدم في الدنيا وسيد الناس في الآخرة من قصيدة مطلعها (٢) :

سَلاماً ولا أقرُّ سلاما على هندِ ... صرفت إذن مسرايَ عن مسلك الرشد
نبي عليه من تلألؤ نوره ... تلألؤ بَرق أسرجته يد الرّعد
سلام عليه ماتغنت حمامةٌ ... وفاحَ ذكيُ المسك من جنةِ الخلدِ
وما انشد المشتاق إن هبّت الصبا ... الا يا صبا نجد متى هجتَ من نجدِ

وحين يستسلم بعضهم للآلام والأحزان وينشجون ويذرفون الدموع ، لأنهم لم يستطيعوا شدّ الرحال إلى الرسول الكريم ، يظهر ابو بكر محمد بن ابي عامر احمد الغافقي الشجاعة والبأس الشديدين للرحيل إلى طيبة ، ويستلذ في ذلك المخاطرة ، ويستهين بالردى دون أن يترك ذلك اثراً من إعاقة في الرحلة ، وكل المكاره والمتاعب تهون ازاءَ حضور الله سبحانه وتعالى معه (٣) :

عزمت على أن الرحيل لطيبة ... ويعجبني ممن يحبّ التّجاسرُ
اذا لم أخاطر في الوصول لطيبةٍ ... ففي اي شيءٍ ليتَ شعري أخاطر؟!
واني لأهوى الدّار من أجل أهلها ... وأهجرُ الا من إليه أهاجر
حرام على قلبي الحذارُ من الردى ... يُحاذره غيري ، وربي حاضر
اذا كنتَ مشتاقاً إلى من تُحبّه ... فما ثَمَّ مكروهٌ ولا ثَمَّ ضائرِ

وعلى نظير أبيات ابن لبال نجد ابياتاً لابي الحسن الرعيني (ت ٦٦٦هـ) في قصيدة حجازية يقول فيها (٤) :

حنيني إلى البيتِ العتيقِ شديد ... وشوقي إلى وادي العقيق يزيدُ
ويا ليت شعري هل يُباحُ اليهما ... وصولٌ فيحظى بالوصال عميدُ

(١) أزهار الرياض ٣/٢٢٤ – ٢٢٥
(٢) المطرب : ٩٩
(٣) برنامج شيوخ الرعيني ١٩٥
(٤) نفسه ٣٦٥

وهلْ انثني نحو الرسول لطيبة فيدنو لقلبي من مناهُ بعيدُ
وحيث استهلتْ بالدموعِ نواظرٌ لها في سوى تلك الربوع جمود

وازاء هذا الحب العميق للرسول والشوق للقاه به يرتفع لواء الدعوة لزيارته والحث عليها في أشعارهم (١) يقول ابن جبير :

إذا بلغ المرءُ أرضَ الحجاز فقد نال أفضلَ ما أمّلهْ
وإن زارَ قبرَ نبي الهُدى فقدْ أكمل الله ما أمّ لهْ

ويقول أبو زيد الفازازي مبكتاً ومعنفاً بالحجيج المتكاسلين في الحج وأداء الزيارة من قصيدة يقول فيها (٢) :

الناسُ قد رحلوا وأنتَ مُقيم ودّعوا وأنتَ محجّبٌ محرومُ
صدّقوا العزيمةَ فاستقلتْ عيسهم وهواك في نيل المُنى مقسومُ
غلطتكَ من آذي ذنبك مرجةً فيها الهلاكُ وما أراك تقوم
أحسنْ فقد فارقت كل إساءه مهلا فأنت بعلمه معلوم
لاأنت في السفر الذين تقدموا نحو النبّي ولاأراك تقوم

ولم يقتصر شعر الشوق والحنين والحث على زيارة النبي الكريم على ماتقدم من قصائد واشعار فقد روى الحجاري في معرض حديثه عن ابي بكر بن العربي (ت ٥٤٣هـ) ان له اشعاراً تشوق فيها إلى الحجاز (٣) ولكن كم وصل لنا منها ؟ لاشيء فيما وقفت عليه من مصادر .

٢ – وصف آثاره الشريفة :

لقد افرد الشعراء في عصر الموحدين قصائد كثيرة في الحديث عن آثار النبي الشريفة ، ويجد الدارس ضروباً واصنافاً كثيرة لتعلقهم الشديد بهذه الآثار ، وتفانيهم في حبها ، وكما تقدم بنا شوقهم الشديد وحنينهم إلى زيارته فكذلك كان شوقهم لآثاره وحنينهم اليها ، وهي أحد نوعين ، آثار مقترنة بجنابه الكريم اقتراناً مباشراً وأخرى عامة تتصل بالاسلام ، ومن النوع الاخير – وهو الاقل – قول ابن جبير في معرض تشوّقه إلى الرسول ، يذكر جبل احد ، ويستنشق طيب تراب طيبة (٤) :

---

(١) ابن جبير رقم ٤٧
(٢) المقتضب من تحفة القادم ١٣٣ – ١٣٤
(٣) المغرب ١ /٢٤٥
(٤) ابن جبير الاندلسي رقم ٢٢

ولاح لنـــا أحـــدٌ مشرقـــاً بنور مـن الشّهـداء استنارا
فمن أجـل ذلك ظـل الدّجى يحلّ عقـودَ النّجوم انتثارا
ومن ذلك التّرب طابَ النسيم نشراً وعـم الجنـابُ انتشارا

وفي القصيدة عينها يصف وقوفه بفناء الرسول، ونزوله بأكرم خلق الله لأداء فرض السلام في أدب جمّ وخلق رفيع :

ومما يندرج ضمن هذا الاتجاه قصائد لابي الحسن الجياني تفيض بالرقة والحس المرهف لقبر المصطفى وهو الذي عرف برسالته البارعة إلى قبر النبي (صلى الله عليه وسلم) ، والتي اتبعها بقصائد تبدأ بالعناوين التي وضعها عند كل مقطع من مقاطع رسالته وقد نقل لنا رسالته كاملة مع قصائده ابن عبدالملك المراكشي يقول (١) :

ابكي لفرطِ شقاوتـي لو أنـّه يـُدنـي الحبيبَ مـن المحبِ بكـاءُ
دَمعاً متى أجريتُ وادي فيضه ذَهبت بـه انفـاسي الصُعـداء
ياحسرتاً نائـي الإخبـة نـازحٌ يَرجو اللقاءَ وابنَ منـه لقاءُ؟
هامـي الجفون مـع البنان تمازجت في وجنتيـــه أدمـــع ودمـــاء
أعيى نواظره البكـاءُ وصدّعت أكبـادَه الأشـواق والبرُحَاء
شَوقـاً لقبرِ المصطفى ومحبـةً في خيـر من طلعتْ عليـه ذكاء
يافـوز قـوم طيبـوا وجنانهـم بترابِ طَيبةَ هم هم السّعداء

والابيات الآنفة تعبر عن عاطفة عنيفة للرسول الكريم ، صورة عن فراق بين حبيبين تنفلت الدموع الحرى فتعود في وجنتيه دموعاً ودماء ، وعلى هذا المنوال تمضي الابيات حتى يختمها بذكر الداعي لذلك : « شوقاً لقبر المصطفى ومحبة » وفي قطعة اخرى لامية يذكر اصناف المتاعب والاهوال التي يواجهها الراحل إلى زيارة قبر الرسول فتؤول تلك المتاعب والاهوال برداً وسلاماً (٢) :

شـوقـا إلى قبـر النبـي محمـدٍ حتـى تحـلّ بمقتـداه وتنـزلا
حتـى تحـط الرحلَ في قبـرٍ به حفّت ملائكـة السماوات العـلا
قبـرُ النبـي الهـاشمـي محمـدٍ اكرمْ بمنزلـه المقدّس منـزلا

(١) الذيل والتكملة ٥/١/٢٩٦ - ٢٩٧
(٢) نفسه ٥/١/٢٩٨

ومن اخرى رائية يرى أنّ العنبرَ يذم قياساً بتربها وحصاها وهو عنده أثمن من الجوهر ولذلك يستهين السير على جمر الغضا (١):

شوقاً إلى خيرِ الأنام محمدٍ اكرِمْ به ذاتاً واكرم عُنْصُراً

وفي اخرى يناجي فيها ربّه يسأله العفوَ عن ذنوبه، وتيسير زيارة قبرِ نبيه، وفي قبره الدّاء وفيه الدواء (٢) :

فيارَبِّ يسّر لي زيارةَ قبرِه وماذا على فضلِ الاله بناه
فقد طالَ شوقي نحوه وتلهّفي عليه وأودى لاعجُ البُرحاءِ
إلى قبرِ خيرِ العاملين مُحمدٍ نُزوعي ودائي منه وهو دوائي
بقاءُ نعيمي في زيارة أحمدٍ وكلُّ نعيمٍ صائرٌ لفناءِ

ولمحمد بن عبدالله بن الابار البلنسي القضاعي البلنسي (ت ٦٥٨هـ) قصيدة في التشوق إلى الضريح المقدس يحمّل زائري النبي الكريم السلام، ويعلّق أملا على ردّه السلام عليه الصلاة والسلام بعد ان تعوقه عن زيارته بنفسه (٣) :

لو عنّ لي عونٌ من المقدار لهجرتُ للدارِ الكريمة داري
وحللت أطيب طينة من طيبة جاراً لمن أوصى بحفظ الجار
يازائرين القبر قبر محمدٍ بشرى لكم بالسبق في الزّوارِ
فوزوا بسبقكم وفوهوا بالذي حمّلتكم شوقاً إلى المختار
أدّوا السلام سلمتُم وبردّه أرجُو الاجارة من وُرودِ النّار

كذلك نقف في قصيدة للامام الفقيه أبي الحسن علي بن احمد بن لبال الامبي (ت٥٨٣هـ) يتشوق فيها إلى الرّوضة المقدسة على ابيات في التبرك بالضريح الشريف يقول فيها مرسلا السلام الى الرسول (ص) :

على قمرٍ لو أطلعته يدُ الثّرى لقصّر عن لألائة قمرُ السّمد
وأربى على نورِ الغزالة نوره كما يفضلُ الحرُّ الكريم على العبد
فطابَ بتربٍ للضريحِ بطيبةٍ فيعبق عن مسكٍ ذكي وعن ندٍ

(١) نفسه ٥/١/٢٩٨
(٢) نفسه ٥/١/٣٠٠ – ٣٠١
(٣) ازهار الرياض ٣/٢٢٥

ويضحكُ عن رَوضٍ تَدانى به الصبا بها صَفحةُ السُّوسانِ عن صفحة الورد
فطوبى لمن اضحى يمرّغ لَـوعةً بتربةِ ذاكَ القَبر خداً على خـــدِ(١)

وطلب اداء السلام على الرسول هو أسمى مايتمناه المسلم ، وفكرته منبثقة من مفهوم الحديث الشريف : «مامن مسلم يسلّم عليّ الاردّ الله عليّ روحي حتى أردّ عليه السلام»(٢).

وأما اكثر ماجاء في اثار الرسول (صلى الله عليه وسلم) فمنصب على تمثال نعل النبي او مثال نعل النبي ، «وهو تجويف في بعض الاحجار يزعم بعض الناس أن قدم النبي غاصت فيه فتركت هذا الاثر المجوف » (٣) . وقد ألفت مصنفات ونظمت مطولات فيه ، لعل اشهرها كتاب ابي العباس المقرى (ت ١٠٤١هـ) صاحب كتابي نفح الطيب وازهار الرياض ، ومصنفه موسوم بـ «فتح المتعال في مدح النعال» وقد جعله في فاتحة واربعة ابواب ، خصّ الباب الاول بذكر الاحاديث النبوية التي وردت في النعال وتفسير الفاظها اللغوية والباب الثاني في صفة المثال العظيم البركات والثالث في ايراد نبذة من المقطعات والقصائد المقولة فيه على حروف المعجم ، واما الرابع والاخير ففي جملة من خواص المثال المجربة ومنافعه المنقولة ، عمن عرفها من الثقات ، وقد تمت له الابواب — كما في المطبوع في اربع عشرة واربعمائة صفحة ، والباب الثالث من الكتاب هو أوسع الابواب ، حيث جاء في مئة واربع ومبعين صفحة ، ومع انّ الكتاب أوسع كتابٍ وَصَل الينا في بابه ، فإنّ ابا العبّاس العياشي إطلّع على كتابٍ بمكة للحسن بن عبد الرحمن بن عذرة المغربي الانصاري واسمه : «منتهى السُّول في مدح الرسول » وبعد المقارنة قال : «ولم يطلع على هذا التأليف

---

(١) المطرب ٩٩ ، كذلك تنظر قصيدة ابي العباس أحمد بن عبد الرحمن بن الصقر (ت٤٦٩هـ) الاشبيلي في وداع القبر المكرم ، الذيل والتكملة ٢٣٠/١ ، المقتضب ٤٩

(٢) سنن ابي داود — مناسك ٩٦ .

(٣) ابن الابار ٣٥٦ ، وقد وردت كلتا اللفظتين : «تمثال ومثال » بمعنى واحد في الاخبار والاشعار ومن ذلك قول ابن سعد الخير : يالاحظاً تمثال نعل نبيه قبل مثال النعل لامتكبراً (الذيل والتكملة ١٨٩/١/٥) ، ويبدو أن هذا الاثر ذكر في أماكن متفرقة بمصر ، والقدس والطائف والقسطنطينية وللامام السيوطي اجابة على سؤال وقع اليه عن هذه الاقدام بأنه لم يقف في ذلك على أصل ولا سند ولا رأى من خرجه في شيء من كتب الحديث ، كما انكره كثير من العلماء واثبته بعضهم ، مقال احمد تيمور باشا — الاثار النبوية ص ٦٧ مجلة الهداية الاسلامية ج ١ مجلد ٢ ١٩٢٨ نقلا عن كتاب تاريخ المساجد الاثرية حـ ١ ص ٢٥٦ — حسن عبد الوهاب ط دار الكتب المصرية ١٩٤٦

شيخ مشايخنا الحافظ سيدي ابو العباس أحمد المقرى مع سعة حفظة ، وكثرة إطلاعه ومبالغته في التنقير والتفتيش عما قيل في النعل ، ولم يطلع لمن قبل عصره ولو اطلع على هذا الكتاب لاغتبط به كثيراً » (١) :

يتصدر شعراء عصر الموحدين الذين اكثروا وأطالوا من ذكر المثال الشريف ابن الأبار البلنسي ، فمما نقله المقري في ازهار الرياض ، قصيدتان لامية ورائية ، يقول في الاولى(٢):

سجّام لعمري أدمعٌ وسجالُ ... لإنْ عزَّ من نَعلِ الرّسول مثالُ
مثالٌ إلى نَعلِ المطهّرِ يُعتزَى ... فإعزازُهُ للحُسينينِ منال
أقبّله شوقاً تملكني لمّا ... حكى وشهيدي لَو يَفُوه قبال
ومعقده مما عقدتُ به الهوى ... فلا صحّ عزمي إنْ صحّالي بال
مُرادي من تمريغ شيبي عليه أن ... تسحَّ من الرحمن عليَّ سجال
ومن وضعه في حُرّجهي ورفعه ... لقمة رأسي أنْ يعزّ مآل

واما القصيدة الثانية فقد جاءت في فتح المتعال الى جانب ازهار الرياض وبالرواية نفسها ، وفي القصيدة يبسط أسبابه وعلله في تقبيل المثال الشريف ويأتسي بالعاشقين الذين يقصدون من لثم الطلول تذكر الاهل والخلاف ، وحبه النبي اذن راشداً أولى من ضلال العاشقين (٣) :

لمثال نعل المصطفى أصفي الهوى ... وأرى السُّلو خطيئةٌ لن تُغفرا
واذا أصافحهُ وأمسح لاثماً ... أركانه فمعززاً ومُوقّراً
سرّي اعتزازي في جهار تذللي ... لجلاله أثراً بقلبي أثرا
لي أُسوةٌ في العاشقين وقصدهم ... لثمّ الطلول لأهلهن تذكرا
وبكائهم تلك المعاهدَ ضُلّةٌ ... تحت الظّلام على الغرام توفرا
أفلا أمرّغ فيه شيبي راشداً ... وأريقُ دمعي وسطه متأثرا
ثقةٌ بأثراتي من الخيرات في ... شفعي بنعليّ خير من وطئ الثرى

(١) رحلة العياشي ٢٥٦/٢ نقلا عن مقدمة الدكتور احسان عباس لكتابه نفح الطيب ١٣/١.
(٢) ازهار الرياض ٢٢٤/٣ .
(٣) ازهار الرياض ٢٢٤/٣، فتح المتعال ١٨٨ .

ومن الشعراء الذين نظموا في هذا الموضوع ، علي بن ابراهيم بن سعد الخير (١) (ت٥٧١هـ) كان إماما متقدما بارعا في علوم اللسان ، شاعراً مجيداً ، كتب عنه ابو الرّبيع سليمان بن عبد المؤمن ، وله مصنفات كثيرة وفي ابياته يقول معللاً شأنه شأن ابن الابار (٢) في شدة تعلقه بالتمثال الشريف :

يا لاحظاً تمثالَ نعل نبيّه ... قبّل مثالَ النّعل لا متكبراً
والثم به فلطالما عكفتْ به ... قدمُ النّبي مُروّحا ومبكرا
أو ما ترَى أنّ الشّجيَّ مُقبّلٌ ... طلا وإن لم يلف فيه مخبرا

وجاء تذييل للابيات للقاضي ابي اميه بن عفير وفيهما توضيح اكثر على طريقة الشعراء لمسألة تقبيل وتقديس الآثر (٣) :

ويبدو أن هذا اللون من الشعر قد استهوى عدَداً من الشّواعر فضلاً عن الشعراء، ولا سيما العالمات منهن ، وسعدونه أمّ السعد بنت عصام الحميري (ت٦٤٠هـ) واحدة من النساء المشهورات بالأندلس انشدت مكملة لقول غيرها (٤) :

سألثم التّمثال اذ لم ... أجد للثم نَعلِ المصطفى من سبيل
لعلّني أُحظى بتقبيله ... في جنةِ الفردوسِ أسنى مَقيل
في ظلّ «طوبى» ساكناً آمنا ... أسقى باكواس من السلسبيل
وأمسح القلب به علّهُ ... يسكنُ ما جاش به من غليل
فطالما استشفى باطلال من ... يهواه أهل الحب في كل جيل

وكما ورد التعليل في التقبيل عن ابن سعد الخير يرد عند سعدونة، وهو أجلى واوضح عند ابن الابار البلنسي في ابياته الرائية، التي يترفع فيها أن يكون مسُحه وتقبيله للاثرفي صورة تقديس لذاتِ الأثر وهو صورة من صور الشرك، وإنما التّقديس لذاتِ الرسول ليس الا :

---

(١) ينظر في ترجمته ،الذيل والتكملة ٢١٨٧/١/٥ التكملة رقم ١٨٦٧ ،تحفة القادم ٥١، رايات المبرزين ٧٨، زاد المسافر ٥٥، المغرب ٣١٧/٢ .
(٢) الذيل والتكملة ١٨٩/١/٥ .
(٣) نفسه ١٩/١/٥ .
(٤) نفح الطيب ٤/ ١٦٦ .

ولابي الربيع سليمان بن سالم الكلاعي (ت٦٣٤هـ) العالم الجليل صاحب المؤلفات الكثيرة الذي استشهد بمعركة أنيشة صابراً محتسباً في هذا الباب منثور ومنظوم كثير ومنه جزء أسماه «نتيجة الحب الصميم وزكاة المنثور والمنظوم»(١)، ولم نقف على تأليفه هذا وانما وصلت منه قصيدة ذائعة الصيت ، قال المقرى: «ختم فيها المؤلف في النّعل ومدّ فيها الباع واطال النفل، ومدّ الرسَن وذكر المثال الكريم ، ومدح فيها المصطفى ذا الخلق العظيم وذكر جماعة من أهل السوابق، ومن الآل والذرية المطهرين ... ولم أقف على الجزء ولاعلى تمام القصيدة وانما رأيت الرّحالة ابن رُشيد حكى ماذكرت فذكرته بلفظه» (٢) والقصيدة تلتقي مع قصيدة ابن الابار البلنسي الرائية السابقة في منزعها ومعانيها ومطلعها :

يامن لصَبٍ يَرى أشجانه النَّظـر ... مَهمـا تبـدّا له مـن حبِّـه أثَرُ
يفي له الصَّبر عندَ النّائباتِ فإنْ ... يَلُحْ له أثـرٌ لم يبـقَ مصطـبَر

وفيها يقول :

فيامطارَ الحشَـا شَـوقـاً لرؤيتـه ... والعينُ تَشتَاق مهما أبصر الأثـر
مثالُ نَعل النَّبي المصطَفى عَوضٌ ... في نعلهِ حين حالتْ دُونهَا الغير
فمرغِ الشَّيبَ في ذاكَ المثالِ عَسىَ ... بـذاكَ ثَوبُكَ للأعمـالِ يَفتقـر
واستشعرن لثمهـا في لثـم ممتثلٍ ... به حـذاءٌ لهـا أودى به العُصُـر
ففي تشابـه آثـارِ الأحبـة مـا ... يُرى به وَجدُ مشغوفٍ ويَستَعِر

والدليل على شهرة القصيدة وذُيوعها أنّ عدداً من الشعراء عارضها ومنهم عالم مغربي اندلسي لم يحضر اسمه المقرى ، في قصيدة فريدة ، اتفق معه فيها في البحر والروى والمنزع وكثير من الالفاظ اولها قوله :

ياويحَ للصّب أن يبـدو لـه أثر ... من الحبيب يهيج اشواقـه النظـر

وقد أوردها كاملة في أخر كتابه «فتح المتعال» فجاءت في ثلثمائة وثمانية ابيات ، وأكّد في نهايتها أنها نظمت في معارضةِ قصيدة الحافظ الكلاعي ، التي لم يقف على تمامها وإنما أورد منها بعض الابيات ،ومن طول قصيدة المقرى، وطول قصيدة السبتى كذلك نستطيع ان نقدر طول قصيدة الكلاعي، ولاسيما والمقري ينص على ان قصيدة المغربي تتفق مع قصيدته في المنزع وكثير من الالفاظ .

---

(١) فتح المتعال ١٤٤ .
(٢) نفسه ١٨٧، وتمام القصيدة في ٣٧٤ – ٣٩٠ .

ولقد يرع الكلاعي في قصيدة أخرى أقرب ماتكون في نزعتها ، إلى شعر الصوفية ، الذين يغلب عليهم البكاء وتأخذهم الرقة من ذكر اسم الحبيب حيث شبه نفسه والرسول الكريم بالمحب والأحبه ، ولم نقف على القصيدة كاملة في كتاب ، انما استللناها من تخميس محمد بن فرج السبّي الذي ورد في ازهار الرياض وقدر لهذه القصيدة من الذيوع والانتشار ماقُدّر لقصيدته الرائية الآنفة الذكر ، حيث سلك على رويها وقافيتها ابن الابار البلنسي ، وخمسها محمد بن فرج السبّي . يقول الكلاعي (١) :

خواطرُ ذي البلوى عوامر بالجوى ... ففي كلّ يوم يعتريه خبال
وان يرَ من آثاره أثراً همت ... له من غروب المقلتين سجال
عرّاني مايعرو المحبّ إذا بدا ... لعينيه من نعي الأحبة آل
فقبّلت من ذاك المثال معاوداً ... أرى أن ذلي في هواه جلال
ومن منّه العشّاق أن يبعث الهوى ... مثالٌ ويقناد الغرامَ خيال
فلا فرقَ الا أنّ حبّ محمدٍ ... هُدى والهُدى فيمنْ عداه ضلال

٣ـ المديح الخالص :

بعد هذه الإلمامة بموضوعتي الشوق والحنين ، ووصف آثار الرسول الشريفة نخلص إلى صلب موضوع البحث ، المديح النبوي ، ويتشعب الحديث ازاءه إلى شعب ومحاور كثيرة وذلك لكثرة ماوقفنا عليه ، من نماذج شعريه تمثله ، ولقد كان الفضل في تعريفنا على نصوصه بالدرجة الاولى لابي العباس المقري ، في موسوعتيه النفحتين نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وأزهار الرّياض في اخبار القاضي عياض ، وكان نصيب المدائح النبوية من الكتاب الأول جزءه الاخير وهو السابع في حوالي مئة صفحة (٢) ، وحظها كان اقل في الكتاب الثاني ، ولم تقتصر النماذج التي أورد ها المقري على شعراء بيئة واحدة وزمن وا حد ، وا نما جاءت نقوله عامة لشعراء المغرب والاندلس ولعهود مختلفة حتى عصره :

ومما يستدل به على كثرة شعر المديح النبوي ، قول المقري في ختام حديثه عن الموضوع في نفح الطيب « وهذا تسديس جعلته للكتاب مسك الختام » وبعد ان يورد التسديس

---

(١) ازهار الرياض ٣/٢٢٥ وينظر الادب المغربي ٢٠٣
(٢) نفح الطيب ٧/٤١٥ – ٥١٧

يقول : « والا فالامداح النبوية بحر لاساحل له ،وفيها النثر والنظام زاده الله شرفاً وحباه أفضل الصلاة وازكى السلام » (١) :

وفي فتح المتعال يكرر عبارته بعد قصيدة مجهولة النسبة فيقول : « وليكن هذا آخر الكلام في عرضنا فإنه بحرٌ لاساحل له » (٢).

وفي موضع آخر من نفح الطيب يذكر بعد أن يروي لنا قصيدتين طويلتين نظمهما علاء الدين محمد بن عفيف الدين الحسني الصفوى الزينبي ، على طريقة التسديس مرتبة على حروف المعجم ، مع اختلاف يسير في التزام نظام القافية ، يذكر بأنه اورد هاتين القصيدتين وإن كان فيهما من التكلف ما لا يخفى لأوجه :

احدها : أن صاحبهما من الصالحين يسلم له ويتبرك بكلامه ، ومن اعترض على مثله يخشى عليه من تسديد السهام لملامه.

الثاني : أنهما مدح للنبي وعليه من الله أزكى صلاته وأتم سلامه :

الثالث : أن المراد جمع ما وقفت عليه من البحر والروى والمعنى (٣).

والوجهان الاولان يتعلقان بصاحب الابيات ، وبموضوعها ، ولا صلة لهما بالابيات ذاتها وهما يفسران لنا أثر العامل الديني في انتشار وشيوع المديح النبوي بغض النظر عن معيار الجودة الفنية ، وبمعنى آخر إن ايّ قصيدة كانت تنظم في هذا الموضوع يقدر لها الشيوع والذيوع على السنة العوام وسواد الناس ، والعلماء كذلك ممن كانت العاطفة الدينية أقوى العوامل الموجهة لهم ، وهذه العاطفة الدينية هي التي بلورت ذوقهم الادبي ، وكانت مقياس استحسان الشعر او استقباحه ، والوجهان الأولان أديا بالمقري إلى الوجه الثالث ، وهو الرغبة في الاستقصاء والتتبع للوقوف على اكثر ما يمكن من القصائد في البحر والروى والمعنى.

ولذلك أفرط المقري في رواية قصائد المديح النبوي ، ونقل من كل ما وقع بين يديه من كتبه وكرر رواية المتشابهات فقال في موضوع «... واحببت ذكره هنا زيادة في

(١) نفسه ٧ /٤١٢

(٢) فتح المتعال ٣٩

(٣) نفح الطيب ٤٧٩/٧ «وقد ورد فيه التسلسل كما أثبتناه ولعل الصواب أن يكون : الاول، الثاني .. »

التبرك بمدح المصطفى عليه اجل الصلاة والسلام» (١) : وقال كذلك بعد أن اكثر من ايراد الشعر : «ولا بأس أن نعززها بمقطوعات تكون للتكفير زيادة ، وحُقّ لمن توسل بسيد الوجود صلى الله عليه وسلم أن لا تضيع وسائله» (٢) ثم ختم مو سوعته الفذة بالقول، معتذراً عما جلبه من هزل فيه بالجد الذي أورده ، والمحاسن التي احتواها كتابه «ولو لم يحُز من الشرف الا ختمه بهذه الأمداح النبوية الشريفة، ذات الظلال الوريفة لكان شافياً كافياً» (٣).

ولم يكن المقري المعني الوحيد بشعر المديح النبوي، وانما حالف هذا الموضوع ما حالف شعر الزهد والتصوف من الذيوع والانتشار بين الناس ، ليس هذا فحسب وانما تراوى شعر المديح النبوي العلماء وتناقلوا قصائده عن البعض ، فمن ذلك ما نقله ابن خير الاشبيلي في فهرسته عن القصيدة اللامية في سير رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لابي محمد عبد الله بن ابي زكريا الشقراطيسي وشرحها للمقرى ابن الطفيل المذكور (٤). والرسالة التي كتبها ابن ابي الخصال متضمنة قطعة شعر عن أحد الزمنى اليه «صلى الله عليه وسلم» فلما وضعت عند قبره عليه السلام «برىء» المقعد بإذن الله تعالى ثم ببركة النبي «صلى الله عليه وسلم» (٥) كذلك قصيدة ابي زيد عبد الرحمن الفازازي التي اخذها عنه ابو الحسن الرعيني والتي اسماها «العشرينية النبوية» (٦).

واكثر شعر المديح النبوي يضطرب في نسبة قصائده إلى اصحابها فقد ساق المقري قصيدتين ذكر أنهما منسوبتان لحازم القرطاجني (ت ٦٨٤هـ) يضمن فيهما قصيدتي امرىء القيس اللاميتين : «قفا نبك» و«الاعم صباحا » عقب بعد الثانية بقوله (٧) : «هكذا وجدت بخط بعض أعلام مراكش نسبة هذه القصيدة لابي الحسن حازم المذكور ،واعتمدت على هذه النسبة ثم بان لي خطؤها ، وانما هذه القصيدة من نظم الفقيه العلامة أبي بكر بن جزى الكلبي الغرناطي، حسبما نصّ على ذلك غير واحد»:

---

(١) نفح الطيب ٧/٤٨٥

(٢) نفح الطيب ٧/٥٠٦

(٣) نفسه ٧/٥١٨

(٤) فهرسة ابن خير ٤١٩

(٥) نفسه ٤١٨

(٦) برنامج شيوخ الرعيني ص ١٠٢

(٧) ازهار الرياض ٣/٨٤/ وانظر ديوان حازم القرطاجني ص ٨٩

وقد انفرد المقرى في نسبة قصيدة مدحية إلى أبي اسحاق ابراهيم بن سهل الاسرائيلي وهي مما لم يرد في ديوانه كذلك(١)، ليس هذا فحسب وانما نجد أبا العباس المغربي في مواضع أخرى من نفح الطيب، وهو العالم المتحقق يعجز عن معرفة أصحاب القصائد ويكتفي في نسبتها بالظن والترجيح (٢).

وابرز شعراء المديح النبوي اثنان احدهما : ابو عبدالله محمد بن محمد الانصاري ابن الجنان من أهل مرسية كان محدثاً راوية ضابطاً، كاتباً بليغاً شاعراً بارعاً، خرج من بلده سنة(٦٤٠هـ)واستقر بأريولة ثم رحل إلى سبتة فاقام فيها، ومنها توجه الى بجاية، روى انه كان مفرطاً في القماءة حتى يظن رائيه أنه طفل ابن ثمانية اعوام اونحوها، وكان له في الزهد ومدح النبي «صلى الله عليه وسلم» مدائح ونظم للمذكرين كثيراً.

جرت بينه وبين أدباء عصره مكاتبات، نقل ابن عبدالملك المراكشي بعض ما جرى بينه وبين ابي الحسن علي بن محمد الرعيني الاشبيلي المعروف بابن الفخار (٣) (ت٦٦٦هـ) كذلك خاطب ابا عبدالله بن عابد الاندلسي في رسالة التزم فيها العين في كلماتها أجمع، وراجع الرعيني برسالة مماثلة (٤)، ورسالته في جواب ابي المطرف بن عميرة، طويله وذائعة مشهورة (٥).

ومجموع ما اورده المقري في نفحه ستة نصوص بين رسالة وخطبه وهي في مجملها في تثبيت القيم الاسلامية، ومدح الرسول «صلى الله عليه وسلم» وهي تكشف لنا عن براعته وتمكنه في اللغة، ومن منثورة رسالته التي كتب بها من الأندلس إلى سيد الكونين (صلى الله عليه وسلم) (٦) والرسالة تصدر عن نفس رقيقة شفيفة ورغبة أكيدة في زيارته مع انقطاع الاسباب، وقلب موله بحبه عليه الصلاة والسلام.

(١) النفح ٤٤٥/٧

(٢) من الفاظه في ذلك «لبعض أهل المغرب» و « بعض فضلاء المغاربة» و «اظنه من أهل المشرق» و«الذي في ظني» ينظر نفح الطيب ٤٤٥/٧، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٨٥.

(٣) الذيل والتكملة ٥ /١/ ٣٢٥.

(٤) نفسه ٥/١/٣٢٧ – ٣٣٤.

(٥) النفح ٤١٦/٧ –٤٢٢.

(٦) نفسه ٣٢٤/٧– ٤٣١.

وما يهمنا من ابن الجنان أشعاره التي نظمها في المديح النبوي، وشيوعها بين الناس والمجالس حيث تؤلف قصائده المدحية نسبة عالية قياساً إلى قصائده الاخرى، من ذلك مخمسته التي تقع في تسعة وعشرين مقطعاً ومطلعها (١) :

اللّه زاد محمداً تكريما
وحَبَاه فَضلاً من لدنه عَظيما
واختصّه في المرسلين كريما
ذا رأفة بالمؤمنين رحيما صلوا عليه وسلموا تسليما

وهي استعراض لمحامد الرسول الكريم وخلاله التي سبق بها الانبياء وفاقهم، وفيها يعرض لإرهاصات النبوة ومعجزاته (عليه الصلاة والسلام)، ويبدي ضروب الشوق والحنين ويختمها بقوله :

يا سامعي أخباره ومفاخره
ومُطالعي آثاره ومآثره
ومؤمّلي وافي الثواب ووافره
إنْ شئتمُ فوزاً بذاكَ عَظيما صَلُّوا عليه وسلموا تسليما

لقد جاءت قصيدته على مثال قصائد المولديات، والتزم فيها الشطر الخامس من كل مقطع عبارة المولديات : «صلوا عليه وسلموا تسليماً» كذلك جاءت على بحر هذه القصائد الذي التزم في اكثرها «بحر الكامل».

وقد قال فيها المقري : «وكثيراً ما كنت انشد هذه القصيدة بالمغرب في مجالس التدريس» (٢) وعده سابقاً في قصيدته لانداده (٣).

وقد تجاوز اعجابه بالقصيدة انشاده اياها، حيث قرّظها عند ختم درس «الشفاء» فقال موطئاً لقصيدة ابن الجنان ولعذب براعتها مُرتشفاً ما نصه (٤) :

---

(١) نفسه ٤٣٢/٧ – ٤٣٨
(٢) نفح الطيب ٤٣٨/٧
(٣) نفسه ٤٤٥/٧
(٤) نفسه ٤٣٩/٧ ولعل المراد بـ « الشفا » كتاب القاضي عياض « الشفاء» .

انشق أزاهر عن متون رياض للعلم واكرع من عذاب حياض
واسق الرياض بذكره الفيّاض واحفظ كلاماً للامام عياض
قد تممت أقسامه تتميماً

واورد منها اربعة مقاطع :

كذلك نقف على قصيدة في روي المخمسة الآنفة، ووزنها، الا انها غير مخمسة ومطلعها: (١)

صلوا على خير البرية قيما وأجل من حاز الفخار صميماً

وهي في اثنين وعشرين بيتاً يختمها بقوله :

يا أيها الراجون منه شفاعةً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

ومن قصائده المدحية التي ساقها لنا المقري في نفحه قصيدتان في وزن المجتث تائية وعينية ومطلع الاولى (٢) :

يا من تقدّس عن أنْ يحيط وصف بذاته

ومطلع الثانية (٣):

يارب بلغ سلامي لأحمد ذي الشفاعة

وعدّةُ كلّ قصيدة اثنا عشر بيتاً ، تمضيان على نسق واحد ، حيث يوجه خطابه الى الله سبحانه وتعالى ، سائلا اياه ، بذاته الكريمة ، وصفاته السامية أنْ يصلي على النبي الكريم وينتقل الى خصاله الحميدة قائلاً :

محمدٌ خيرُ هاد بحلمه وأناته
محمدٌ خير داعٍ بالصدقِ من كلماته
محمد خير مُبدٍ لنا سَننا معجزاته
أكرم فيه من بني هَمَتْ سما مكرماته
أعزز به من رسولٍ سَمَتْ غلا درجاته

واما العينية فهي الاخرى يوجهها الى الله سبحانه ، لكنه يسأله هذه المرة – بدلاً من الصلاة على نبيه الكريم – ان يبلغ سلامه إياه ، وهي الاخرى يشير فيها الى جملة من صفات

(١) نفسه ٤٤٠/٧
(٢) نفسه ٥٠١/٧
(٣) نفسه ٥٠٢/٧

النبي وخصاله الكريمة فهو خاتم الرسل وابهر الخلق مجداً والمرشد الهادي ، وناظم الحسن ، وهو الذي اتم الله خلاله وأكمل فضله ويختمها بقوله :

فـــزده يـــارَبُّ فـــخـــراً وزدْ محبّـــيـــــه طـــاعة

واسلوب كلتا المقطوعتين . في الفاظه وصياغته يقترب من النثرية .

كذلك نقف على مقطوعات خمس (١) لابن الجنان ابياتها بين أربعة وسبعة ، ثنتان بوزن الطويل وبروي النون والعين ، والثنتان الأخريان بوزن البسيط وروى الميم ، والخامسة بوزن الخفيف وروى العين ، وفيها نجد الشاعر يهدي التحية إلى الرسول الكريم ، ويزجي السلام ويلتمس الشفاعة لديه معترفاً بذنوبه راجياً تكفيرها ويكثر من الصلاة عليه ، فيقول في احداها :

إلى أحمدَ المختارِ نُهدي تحيـةً تفاوَحَ روضَ الحُزن بلله المزن
اليه صلاتـي قـد بعثت مشفّـعـاً سلاماً به الاحسـان ينسـاق والحسن

وفي الميمية يقول :

إني توسّلتُ بالمختارِ ملجئنـا الطّاهرِ المجتبىَ من خيرة الأمـم
عليه منه صلاة كلّما طلعـتْ شمسٌ وما خُـطّ في الأوراق بالقلم
فهو الشفيع الذي ارجو النجاة به من الجحيـم اذ الكفـار كالحمـم

وفي الأخرى يقول :

يارَبِّ إنّ شفيعي من ذُنوبي في يَومِ القيامَة خَير الخَلق والنّسـم
عليه منّي صَلاةٌ كلّما سَجَعَ الـ حَمامُ فوقَ غصون البَـان والعَلَم
كذلك أيضاً سَلامي طيّبٌ عَطر عليه ماقام عيدٌ في دُجى الظلـم

ويقول كذلك :

بحبيبِ القلوبِ معتمـد الخَلـق ابي القاسـم النّبيّ الشّفيـع
قد تشفعتُ من ذنوبي إلى ذي الـ عزة الـواحـد العَـلي السّميـعَ
فاشفعْ اشفعْ ياخاتمَ الرسـل يوم الـ حـشرِ والمشهدِ العظيـم الفظيع

ومن خلال ماوصل من اشعاره نستطيع أن نقول بأنه كان مكثراً في النظم ولا يمثل مابين أيدينا من شعره إلا جزءاً يسيراً من اشعاره التي يبدو انها لم تجمع في حياته فقد استشهد المقري

(١) نفح الطيب ٥٠٦/٧ – ٥٠٧

علي حسن نظمه ونثره وغزارته بقصيدة دالية أورد منها مطلعها فقط وهو (١) :

ياحادي الركب قف بالله ياحادي وارحم صبابة ذي نأي وابعاد

ومن قصائده الشعرية الطويلة التي وصلت الينا في غير نفح الطيب قصيدتان، نصيب مدح النبي عليه الصلاة والسلام منها هو الابيات الخمسة الأخيرة فقط ، والاولى ضادية في توديع رمضان وليلة القدر في عشرين بيتاً مطلعها (٢) :

مضى رمضان وكأن بك قد مضى وغاب سناه بعد ماكان أومضا
جزى الله عنا أحمد الجزا على كرم أضفاه يرداً وفضفضا
وصلّى عليه من نبي مبارك رؤوف رحيم للرسالة مُرتضا
له عزةٌ أعلى من الشمس منزلاً وعزمته أمضى من السّيف منتضا
عليه سلامُ الله ما انهلّ ساكب وذهّب موشي الرّياض وفضّضا

والثانية ميمية في ثلاثين بيتاً نظمها في الحج ومطلعها (٣) :

تذاكر الذكر وتهيج اللواعجا فعالجنّ أشجانا يكاثرن عالجا

وفيها يسلك مسلك الشعراء المتصوفة في شوقه وحنينه حين تحول الحوائل دون رحيلهم لاداء الحج وزيارة الحبيب المصطفى :

لعل شفيعي أن يكون معاجلا لداء ذنوبٍ بالشفاء معالجا
فينشقني بيت الاله نوافحا ويعبق لي قبر النبي نوافجا
عليه سلام الله من ذي صبابة حليف شجا يلفى من البعد ناشجا
ولو انصفت اجفانه حق وجده سفكت دماً للدموع موازجا

وثاني الاثنين هو الامام أبو زيد عبد الرحمن بن يخلفتن الفازازي اليجنشي الذي ولد بقرطبة ، ونشأ بها ، وتجول ببلاد الأندلس ، وكتب هو وأخوه أبو عبد الله لامراء المغرب وبلغا الرتبة العالية وكانا من مفاخر وقتهما ، وأبو زيد شاعر مكثر ، وشعره مدون توفي بمراكش سنة(٦٢٧هـ)(٤) قال عنه تلميذه أبو الحسن الرعيني: «هذا شخص لم ألق مثله في

(١) النفح ٤٣٢/٧ وقفت على القصيدة في عنوان الدراية ص ٣٠٢ – ٣٠٦ حيث ساق ثلاثة وعشرين بيتاً منها .
(٢) الاحاطة ٣٥٠/٢
(٣) نفسه ٣٥١/٢
(٤) المقتضب ١٣٣

دينه وفضله ومشاركته في العلوم الشرعية ،ومن سرعة بديهته ، انه كان ينظم القصيدة من أربعين بيتاً إلى سبعين ، فيكتب بها في القرطاس ، كانما هو لها ناقل لاقائل ،وراسم لاناظم ، وربما تندر الصحيفة من يده بذلك غير محتاج فيها إلى تغيير حرف ولا تبديل كلمة :

وهـذه قـوة لم يـؤتهـا بشـرٌ وذا اقتـدار لسان ليس في المنـن (١)

ومن كلام الرعيني ، يفهم أن الفازازي لم يكن يكدّ نفسه أو يكابدها في نظم الشعر ، وإنما كان صاحب بديهة شعرية ، أو قريحة منسابة ، ومثل هذه البديهة ينتظر منها شعْر كثير ، وديوان كبير ، ولكن ماوصل الينا منه نزر يسير ، وهو –على قلته– يدور في مجمله في موضوع المديح النبوي ، والنّصيب الكبير من اشعاره جاء في نفح الطيب : وهو اثنتا عشرة قطعة ، وبقية أشعاره جاءت في برنامج شيوخ الرعيني وفي المقتضب من تحفة القادم ،وسيرته التي حدثنا عنها الرعيني ، توافق اشعاره ، فقد كان (رضي الله عنه) شديد الأتباع للسنة والمنافرة لأهل البدع ، نزيه الهمة ، مؤثراً للورع ، كثير الحب في الصالحين والزيارة لهم ، متواضعاً(٢) ، وفي بعض ابياته ذم الملحدين ولعنهم (٣).

ويبدو أنّ قصيدة في عشرين بيتاً ذاعت له واشتهرت وتراواها العلماء ومنهم أبو الحسن الرعيني الذي سماها : العشرينية النبوية ، التي لم ينظم احد في مدح رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مثلها(٤) ،إلا أنني لم أقف عليها فيما بين يدي من مصادر ، وأما قصائده التي أوردها صاحب النفح فكلها مقطوعات تتفاوت ابياتها بين سبعة وتسعة أبيات ، وهي لاتبعد عن طابع شعر المديح النبوي الذي تقدم لابن الجنان فمحمد مكتمل الصفات تامّها ، وقد بعث لامة كريمة (٥) :

كملتْ بنعت محمـد خير الورى غررُ القصائـد كلهـا وحجولهـا
كـم آيـة بالصّدق كان ظهورها كـم آيـة بالسّبق كان نزولهـا
جمع الاله المكـرمات لأمـة هـذا النبـي الهاشمـي رسولهـا

(١) برنامج شيوخ الرعيني ١٠٢
(٢) نفسه ١٠٢
(٣) ينظر أبياته الرائية في النفح ٥١٠/٧ – ٥١١ والنونية وآخر العينية في النفح كذلك ٥٠٨/٧– ٥٠٩
(٤) المقتضب ١٠٢
(٥) نفح الطيب ٥٠٧/٧

وتمام أنواره بتمام سن الأربعين ،حيث نزول الوحي وتلبية الناس للدين الحنيف (١):

فهو للناس جميعاً مرشد وهو بالله تعالى مستعين
تركت دعوته وهو الرضى سائر الخلق إليها مهطعين

وفي أبيات آخرى يسرد مناقب الرسول الكريم ، وافضاله على البشرية جمعاء ، واختصاص الله سبحانه اياه بالاسراء والمعراج الذي كان بالروح والجسد لا بالروح فقط (٢)

تقدم كل العالمين الى مدى تظل به الاوهام طالعة حسرى

ويؤكد في اكثر من مقطوعة على معجزات النبي الكريم ، وصدق نبوته ، والحجج في ذلك متواترة كثيرة يقول (٣):

اي نطق قد روى إعجازه عن سماع كل من كان معه
حجج الرسل التي قد سلفت أصبحت في احمد مجتمعه

ويقول في أخرى (٤)

فحدّث عن دلائله ففيها شفاء للنهى من كل داءِ
ولست بناقل للعُشرِ منها وهل تفنى الزواخر بالدلاءِ
براهينُ البَسيطة ليس تحصىَ فدونكم براهين السّماء

وتنحوا اشعاره منحى المناقشة والرد على المتشككين حيث يقول (٥) :

اذا بهرت للهاشمي دلالة فكم حجج في طيّها ودلائل
له تحت استار الغيوب شهادة معدّلة لم تبق قولاً لقائل
وحسبكُ في الانباءِ بالغَيب انه متسمعها بالنقل من قول قائل

وفي اخرى يقول (٦) :

كم آية لمحمد كم حجة عزّ الولي بها وذلّ المشرك

ويذهب مذهب الصوفية في ذكر النبي حين يجدد ذكره مبرّئا آسيا من العلل والامراض،

---

(١) نفسه ٧ / ٥٠٨
(٢) نفح الطيب ٧ /٥٠٨
(٣) نفسه ٧ /٥٠٩
(٤) نفسه ٧ /٥٠٩
(٥) نفسه ٧/٥١١
(٦) نفسه ٧ /٥١٠

وان من معجزات الرسول عليه السلام عدم انقطاع المسلمين عن آثاره يتنقلون فيها تنقلهم على الازهار (١) :

لا تعدم النقل عن آثار سيدنا ... فانما نحن فيها بين اعراس
تنقل الأنف في النوّار يَنشقه ... من ياسمين الى ورد الى آس
إنّ القلوبَ اذا اعتلتْ خواطرها ... فذكر أحمد فيها المبرىء الآسي

وفي مقطوعتين آخريين يخاطب المسلمين بالمنهج الذي يرتضيه بذكر الرسول والادب في ذلك ، ويدعو الى الاكثار من الصلاة عليه يقول في الاولى (٢) :

تأدّب اذا ذكر المصطفى ... بصمتِ اللسان وغضّ البصر
فإن التأدّب عند السّماع ... يفهم في النطق او في النظر
وصلّ عليه مدى ذكره ... فذلك أفضل ما يُدّخر

وفي الثانية يؤكد مبدأ العمل بآثار الرسول (صلى الله عليه وسلم) والالتزام بمبادىء الشريعة الاسلامية ، إذ هما ركنان أساسيان (٣) :

اعمل بآثار النبي ... فإنها النور المبين
واقبل نصيحتها ففيـ ... ـها العزّ والشرّف المكين
واشدد يمينك بالشريـ ... ـعة انها السبب المتين
والهج بمدح الهاشمي ... فإنه الحصن الحصين

واكثر مانقف عليه من شعر المديح النبوي بعد وقفتنا لدى الشاعرين السابقين يتمثل في القصائد المفردة أو اليتيمة ، وهي تتسم بطابع الطول بصفة عامة ، وتلتقي في كثير من معانيها فيما بينها ، وسنقف عند ثلاث منها ، وفي مقدمتها واشهرها ، قصيدة أبي القاسم محمد بن علي بن ابراهيم الهمداني المعروف بابن البراق (١). من أهل وادي آشي ، وفي الاحاطة أن الأمير محمد بن سعد بن مردنيش غرّبه من وطنه وألزمه سكن مرسية ثم بلنسية ، ثم عاد إلى وطنه واستقر به آخر عمره وتوفي سنة(٥٩٦هـ)، كان أديباً ماهراً وشاعراً مطبوعاً سريع البديهة في النظم والنثر ، إلى جانب كونه محدثاً ضابطاً ، ومشاركاً في الطب ومتفنناً في

---

(١) نفسه ٧/٤١١-٤١٢
(٢) نفسه الطيب ٧/٥١١-٥١٢
(٣) نفح الطيب ٧/٥١٢
(٤) ينظر في ترجمته : التكملة ٢/٢٥٥٦ الذيل والتكملة ٦/٤٦٧، الاحاطة ٢/٤٨٩

المعارف ،وشعره مدون وسماه «نور الكمائم» (١)، وفي الذيل والتكملة أن مجموع نظمه ونثره اسمه «روضة الحدائق في تأليف الكلام الرائق» (٢)، وقد أورد ابن عميرة الضبي (ت ٥٩٩هـ) جملة من أشعاره(٣). وجاءت أخباره مفصلة في الذيل والتكملة، واحصى من مؤلفاته حوالي عشرة مصنفات ، وفضلا عن ديوانه ذكر أن له مجموعاً في الموشحات في نحو أربعمائة ، وصدره بمقالة سماها : الافصاح والتصريح عن حقيقة الشعر والتوشيح (٤)

وقصيدته في ذكر النبي ، صلى الله عليه وسلم واصحابه رضي الله عنهم، وسماها« القرارة اليثربية بشرف الاحناء القدسية» جاءت في الاحاطة مجتزأة في ستة عشر بيتاً، ورواية ابن عبد الملك انها تسميط تلميذه ابي الكرم جودي في أربع وتسعين مقطعاً ، بمعنى انها تقع في أربع وتسعين بيتاً ، ومن النظر في رواية الاحاطة ومقارنتها برواية ابن عبد الملك (٥) نجد أن كثيراً من أبياتها قد دخله التحريف والتصحيف بشكل يختل معه وزن القصيدة، فضلا عن ارتباك المعنى ،ورواية ابن عبد الملك تصحح الابيات وتقومها :

والغالب أن القصيدة تأتي كاملة من خلال تسميطها ، وذلك لامرين :أحدهما قول ابن عبد الملك، في أولها: «فرأيت إثباتها بتسميطها تبركاً بها ، ولم انشدها على شيخنا ابي الحسن رحمه الله إلا مجردة عن التسميط» (٦) يريد شيخه أبا الحسن الرعيني صاحب البرنامج رحمه الله ، والآخر : أن آخر القصيدة — كما سيأتينا — يشير إلى تمامها ومطلع القصيدة :

بالهضب هضب زرود او تلعاتها شاقتك هاتفة على نغماتها

والشاعر يمضي مع المطلع في أبياته ، يذكر فيها هاتفة مصدورة شاقته بنغماتها الشجية وهي ترجّع الحانها ، وقد استوى عندها الضحى والدجى لفرط حزنها ويسترسل في أبيات القصيدة مصوراً ، اثار شجوها عليه ، فقد رمت جنبيه وهي الجريحة ، وأولجته شعب الأحزان ، وعلى هذا النحو من المشاركة الوجدانية ينتهي إلى البيت الخامس والعشرين الذي ينقله إلى موضوعه فيقول :

(١) التكملة ٢ /٥٥٧

(٢) الذيل والتكملة ٦ /٤٦٨

(٣) بغية الملتمس ١١٤

(٤) الذيل والتكملة ٦/٤٦٨ وينظر برنامج الرعيني ٧٥

(٥) الاحاطة ٢/٤٩، الذيل والتكملة ٦/٤٦٩ — ٤٨٢

(٦) نفسه ٤٦٨

هلاّ اقتـدت بـك يامتيم في الهوى إذ ما وُسمتَ بـه يبذّ سماتهـا
أو ليـس حبـك للنـبـي محمـدٍ أضعاف مابثتـه من لوعاتهـا
قـمْ نادبـاً أو ناشجـاً آثـاره في دمنتيه ونادٍ في عرصاتهـا

ويخلص لمديح الرسول (عليه الصلاة والسلام) مستخدماً اسلوب «يا» في أكثر ابياتها مؤكداً على مقام الرسول، وجهوده المباركة في نشر الدين وترسيخ معاني الايمان، وحسمه لمفاهيم الشرك والضلال واستئصاله اياها :

يامـن تبلـج نـوره عـن صـادع بالواضحات الغـرّ مـن آياتهـا
ياشارعـاً في امـة جعلـت بـه وسطـاً فنالـت مـستدام حياتهـا
في دار خلـدٍ لايشيـب وليـدهـا حيث الشباب يرفُّ في جنباتهـا
يامنتقاها مـن أرومـة «هاشـم» ياهاشـم الصلبان مـن نزواتهـا
ياخاضـداً للشرك شوكـة حزبـه يانابغـاً للعـرب في جمراتهـا
ياناصبـاً علـم الديانـة جاهـداً ياذخرها لحياتهـا ومماتهـا

وبعد وقفة طويلة متأتية عند شخصية الرسول الكريم ينتقل إلى صحابته الابرار، العشرة المبشرين بالجنة، ذاكراً أبرز خلالهم وتبشير الله سبحانه اياهم بالجنة :

فئة تواصت بالسناء فاشرقت شمس النبوة في سنا جبهاتها
شهدت لها بالجنة الذات التي وطئت بأخصمها ذرى عزماتها
هي صفوة المختار فاقتف سبلها وتوخ أن تستن في مرقاتها

بعدها ينتقل الى قبر الرسول الكريم وشدة شوقه لتربته وبكائه لها فيقول :

شوقي لتربتـك المقدسـة اقتـضى دنفي وصـدّ النفس عـن خطراتهـا
فارحـم بكـاء مغـرّق في أبحـر من دمعـه يختال في غمراتهـا
واشفـع لـه في توبـة يصفو بهـا نفساً فتقلـعَ عن قبيـح سناتهـا

ويختمها بازجاء السلام إلى شخصه الكريم :

ثم السـلام عليـك ياشخـص الرضـا مادمـت أصـل رشـادهـا لغـواتها
ووهبتـها المأمـول مـن طـلباتها ووفيتها المحذور مـن آفـاتـهـا
وخصصتـها عـند الإلـه بـحظوة اقطعتـهـا فيها جزيـل هبـاتها

والقصيدة المفردة الثانية التي تلي قصيدة ابن البراق في الشّهرة والمقام هي قصيدة ميمون ابن علي بن عبدالخالق الخطابي الصنهاجي المعروف بابن خبازة نسبة إلى خاله المشهور بابن خبازة ، ولد بفاس في العقد السابع من القرن السادس وتوفي بالرباط سنة ٦٣٧هـ. قال ابن عبدالملك المراكشي : « كان بارع الخط ، وكان من اكبر اعاجيب الدهر في سرعة البديهة ناظماً وناثراً مع الاجادة التي لا تجارى التفنن في اساليب الكلام معربه وهزله على اختلاف اللغات ، تطور كثيراً وتصوف ونسك ووعظ (١)». عرف في آخر عمره بامتداح ملوك عصره وبراعته في ذلك، وولي بآخره حسبة الطعام بمراكش (٢) .

لقد علل مؤلفا كتاب الادب المغربي حالته تلك فقالا : «إن الاحداث المريرة التي حصلت في الاندلس أثّرت في نفسية الشاعر تأثيراً بليغاً، فجعلته يزهد في الدنيا ويتصوف ثم ينقطع نهائياً إلى الله الذي باعه روحه وجوارحه في وثيقة غريبة كتبها عن نفسه في هذه الصفة الربانية (٣) » .

لا يعرف لابن خبازة ديوان مجموع على كثرة شعره، اما انه لم يدون اشعاره، واما لان يد النلاشي لعبت بكثير من آثار غيره من الادباء (٤) .

وقصيدته المفردة بائية على بحر الطويل في مئة وسبعة وستين بيتاً ومطلعها (٥) :

حقيق علينا ان نجيب المعاليا لنُفني في مدح الحبيب المعانيا

يغلب عليها طابع السرد التأريخي ، ولذلك جاءت مفرطة في الطول ، وكأنه جعلها استعراضاً لحياة الرسول الكريم الحافلة ، بدءاً من حمله ، وما صحبته من ارهاصات ، وانتهاء بوفاته عليه الصلاة والسلام ، ولم يشأ أن يقف عند غزواته والاحداث السياسية التي عاشها ، انما ركزت القصيدة على جانب اساس فيه هو جانب النبوة ، وفي ابياته الاولى يبين غايته من المدح ، النابعة من فكرة الانتصار للحق والرسول اولى الخلق بالمدح ، ويظهر الاسف على ما تقدم منه من مدح في غير الرسول الكريم :

سهوت بمدح الخلق دهري فهذه سجودي لجبري كل ما قلت ساهيا

فلا مدح الا للذي بمديحه تطيع اذا ما كنت بالمدح عاصيا

(١) أزهار الرياض ٢/ ٣٧٩

(٢) نفسه ٢ /٣٧٩

(٣) الادب المغربي ٢٠٠

(٤) النبوغ المغربي ١٨٠٨

(٥) أزهار الرياض ٢/٣٨٤ – ٣٩٢

ويظهر مقام الرسول عليه السلام عند الله، وبرئه اياه من نور آدم عليه السلام، وانتقاله في الظهور سراً من الاسرار حتى يوم بعثه، وتشفع الانبياء به، ويبدأ في البيت السادس والاربعين بالحديث عن ارهاصات الحمل والولادة، وارضاع حليمة اياه، وحادثة شق الصدر واشتغاله بالتجارة، ولقاء بحيرا بالشام، وفي البيت الخامس والتسعين يروي جانباً من سيرته واخلاقه وتعبده في غار حراء وهجرته، ويورد كثيراً من معجزاته ، الذئب الذي اخبر عن المصطفى ، والضب الذي اجاب الرسول والجذع الذي حن شاكياً وانشقاق القمر، والجمل الذي اشتكى إلى النبي، ونزول الغيث بدعائه لمدة شهر، وفيض الماء بين اصابعه ، والركوة التي اسقى بها في الحديبية، وقبضة التمر التي اشبع بها القوم، وتواتر اخباره بالشيء قبل كونه، في خمس وعشرين بيتاً لينتهي إلى أن ابلغ معجزاته هو الوحي وتحديه اهل البيان ويختمها بقوله :

عليه سلام الله لازال رائحاً عليه مدى الايام منا وغاديا

لقد رأى بعض الدارسين ان قصيدة ابن خبازة تعد من أوائل الامداح النبوية (١)، وهي ولاشك احدى القصائد المدحية المتميزة في الشعر الاندلسي، ولكن قصائد المديح النبوي التي سبقتها كثيرة، كما تقدم بنا ورأى الدكتور حكمة الاوسي (٢): «انّها تتسم بطابع اسطوري بديع الا انه غير اصيل، وانما هو نظم للاساطير الشائعة حول النبي محمد، وسلك فيها اسلوباً قصصياً مشوقاً ذا حوار حي يتصف بالبساطة والرقة» .

ولعل المقصود بالاسلوب القصصي هو هذا الحشد من اخبار الرسول الكريم ومعجزاته الذي تضمنته القصيدة، واما اتّسامها بالطابع الاسطوري فوصف غير دقيق وذلك لامور: أولها : أن فكرة شيوع الاساطير حول شخصية الرسول الكريم في ذلك العصر، لم تكن مقبولة ميسورة، ولم تكن لتصدر عن العوام فضلا عن أن تصدر عن الفقهاء والعلماء ، وكانت تواجه بالاستنكار والاحتجاج والرفض فتقبر وتستأصل، شأنهم في ذلك شأن الدعوات المخالفة لروح الاسلام، والثاني : ان جملة ما يتعلق بشخصية الرسول (صلى الله عليه وسلم) هو أخبار متواترة صحيحة نقلتها كتب الحديث والسيرة النبوية الشريفة فهي حقائق وأحداث تاريخية، لا اساطير وخرافات، والامر الثالث: انها لم ترد في قصيدة

(١) الادب العربي ٢٠٢

(٢) الادب الاندلسي في عهد الموحدين ٢٣٦ .

ابن الخبازة فحسب وانما جاءت في قصائد المديح النبوي، ومنها مخمسة ابن الجنان (١) وقصيدته الميمية كذلك ، ولا سيما فيما يتعلق بمعجزات الرسول عليه السلام.

وثالثة الاثافي من القصائد المفردة اليتيمة هي قصيدة ابي العلاء أدريس بن محمد ابن موسى الانصاري ، ومعلوماتنا عن الشاعر قليلة باستثناء ماورد في التكملة (٢) من انه من أهل قرطبة مال الى العربية والاداب ، وأقرأ فيها الى أن تملكها الروم فخرج منها ونزل بسبته ، وأقرأ هنالك ، وكانت له مشاركة في النظم والنثر مع غلبة الانقباض عليه والصلاح وتوفي في آخر سنة ٦٤٧هـ قصيدته المخمسة ميمية على بحر الكامل في واحد وعشرين مقطعاً ، ويبدو انها حظيت باعجاب شعراء المديح النبوي ، فضلا عن الادباء ومحبي هذا اللون من الشعر فقد وقف عليها احد اكبر اثنين من شعراء المديح النبوي ، ابو عبدالله ابن الجنان ، لذي تقدم الحديث عنه ، وقرظها مستحسناً قصيدته فيما أورده المقرى من ابيات في مجزوء الخفيف ، لزم فيها مالا يلزم قائلا (٣):

لا زال كلّ حليف ... لله أضحى وليّاً
وللعلوم خليلا ... وعن سواها خليّاً
للهاشمي يصوغ عقيان مدحٍ ... للهاشميّ حليّا
ويقتني في رضاه ... تهجاً جليلاً جليا
لكنّ إدريس منهم ... حازَ المكان العليا

والقصيدة – وهي مما نقف عليها في غير نفح الطيب – تدور في فلك قصائد المديح النبوي السابقة من حيث بناء القصيدة ، ومعانيها فهي واحدة من المخمسات الكثيرة تبدأ فيما تبدأ به باهداء الصلاة وازجاء السلام (٤) :

اهلا بكم يا أهل هذا النادي ... أهل اعتقاد الوعد والميعاد
اهدوا الصلاة الى النبي الهادي ... وصلو السلام له مع الاباد
يندى نسيماً مذكراً تسنيماً

---

(١) نفح الطيب ٤٣٢/٧ – ٤٣٥، ٤٤٠– ٤٤١.
(٢) التكملة ١٩٦/١
(٣) نفح الطيب ٤٤٤/٧
(٤) نفسه ٤٤١/٧ –٤٤٤

ينتقل بعدها الى مقامه الجليل ، واختصاصه بالشفاعة العظمى لأمته في يوم الهول حيث لايملك الانبياء الا نفوسهم ، ويكون للنبي ، ما ليس لهم ، وأنه لذلك يعظمه تعظيماً كبيراً، ولا يخرجه ذلك الى ما خرج اليه أصحاب الانجيل من الغلو فهنيئاً لذوي القلوب الصافية التي خط فيها حبه (عليه الصلاة والسلام) ، ويعرّج الى مآثره العظيمة باعتلائه المنزلة الجليلة في ليلة الاسراء ثم يعود الى بعض اوصافه التي هي أبهج من كل حسن ، فطلاقة وجهه ،ونواله المنهل وزهده الكامل، فهو الذي مثل الدنيا بظل زائل ، وكان له شأن كبير بالوحي المنزل ، وهو الذي قال مقالة الله سبحانه ، فَضَالٌ فارقة ، ولم يلتزم نهجه .

وفي ختام القصيدة يظهر العجز والضعف لانه يبلغ المعشار من مدحه ، ولن يبلغه حتى لو كان بشاعرية حسان أوبلاغة سحبان، أو أغانه فصحاء كل زمانه ، ويتمنى في آخر مقطع أن يتيح الله له فرصة فيجلو عينيه بكحل سناه وانما المحل يكرم بكرم أهله :

وبعد أن وقفنا عند أبرز ثلاث قصائد في المديح النبوي يحسن بنا أن نشير إلى أن قصائد أخرى مماثلة ، تجاوزناها لعدم وصولها ، أو لعدم وقوفنا عليها — في الوقت الحاضر — على كثرة أبياتها فقد ذكر ابن عبد الملك المراكشي أن لأبي العباس أحمد بن محمد بن ميمون الاشعري المالقي ، صاحب المؤلفات الكثيرة، قصيدة بارعة طويلة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم تزيد على ثلثمائة وعشرين بيتاً ، ولم يورد منها إلا مطلعها وثلاثة أبيات أخرى (١).

سمات فنية عامة :

بعد هذا الاستعراض العام لشعر المديح النبوي يحسن بنا أن نُحدد أبرز السمات الفنية التي اختص بها فيما يتصل بشكل القصيده ومضمونها :

ففيما يتعلق بالأفكار والمعاني التي تناولتها القصيدة المدحية ، وجدنا قاسماً مشتركاً ينتظمها فقصائد المديح النبوي تتفق في جملة أمور ، نجد فيها دعوة عامة إلى الألتزام بسلوك الرسول عليه الصلاة والسلام وأحاديثه ، والتأدب بالأدب الرفيع في ذكرة فمن ذلك قول الفازازي (٢) :

إعمل بآثار النبيّ ... فإنّها النور المبين
واقبل نصيحتها ففيها ... العزّ والشرف المكين

(١) الذيل والتكملة ٤٢١/٢/١
(٢) نفح الطيب ٤١٢/٧

وفي مقطوعة أخرى تقدمت يدعو إلى الالتزام بصمت اللسان وغض البصر حين ذكر المصطفى (١) وأكدت اشعارهم صفاته واخلاقه فمن ذلك قول ابن الأبار البلنسي في خلق الرسول (صلى الله عليه وسلم) مع الجار (٢) :

وحلاتَ أطيب طيبة من طيبة جاراً لمن أوصى بحفظ الجارِ

وقول ابن الجنان في مخمسته (٣):

ذا رأفةٍ بالمؤمنينَ رحيما صلّوا عليه وسلموا تسليما

وقوله في موضع آخر (٤) :

صلّوا على هذا النبي فإنه من لم يزَل بالمؤمنين رحيما
من كان أشجعَ من اسامةَ في الوَغى ولأى الندى يحكي الحيا تجسيما
طلقُ المحيا ذو حياءٍ زانَه وسط الندى وزاده تعظيما
حكمت له بالفضل كل حكيمة في الوحي جاء بها الكتاب حكيما

وقوله من قصيدة أخرى (٥) :

محمد خير هاد بحلمه وأناته
محمد خيرُ داعٍ بالصدق من كلماته
محمد خير من لنا سنا معجزاته
اكرم به من بني همت سما مكرماته

وقد عرضت قصائد المديح النبوي في اكثر من قصيدة لمعجزات الرسول الكريم ، وحججه الدالة على نبوته في سياق الاعجاب به وتأكيد اختصاص الله اياه، وتميزه على سائر الانبياء فضلا عن بقية البشر فمن ذلك قول ابن الجنان (٦):

سجد البعير له سجود تذلل
وشكا اليه بحرقة وتململ
والشاة قال ذراعها : لاتأكل

(١) نفسه ٤١١/٧ – ٥١٢
(٢) ازهار الرياض ٢٢٤/٣
(٣) نفح الطيب ٤٣٢/٧
(٤) نفسه ٤٤٠/٧
(٥) نفسه ٥٠١/٧
(٦) نفسه ٤٣٦/٧

منـي فـإنـي قـد ملـئت سُمـوما صـلوا عليـه وسلمـوا تسليماً
والغصن جاء اليه يمشي مسرعاً
والصخر أفصحَ بالنميمة مسمعا
والظبية العجماء فيها شغفا
والضّب كلّم احمداً تكليماً صلوا عليه وسلموا تسليماً

وقول الفازازي (١) :

هاك عن هذا النبي المصطفى خبراً يقبله من يسمعه
سبّحت صمّ الحصى في كفّه ثم في كف الهداة الاربعة
اي نطق قد روى اعجازه عن سماع كل من كان معه
حجج الرسل التي قد سلفت اصبحت في احمد مجتمعه

ولعل أبرز خصلة في الرسول الكريم اكثروا من ترادها واطالوا من ذكرها ، هي اختصاصه بالشّفاعة ، كالذي تقدم معنا في ابيات الفازازي (٢) في اكثر من قصيدة وكذلك في ابيات ابن الجنان ومنها قوله (٣) :

يـاربّ بلّغ سلامي لاحمد ذي الشفاعة

وقوله (٤) :

فله لواء الحمد غير مدافع وله الشفاعة اذ يكون كليما

وقول أبي العلاء إدريس (٥) :

هو اول الشفعاء يوم المحشر وسواه بين تقدم وتأخر
بهت الحضور لهول ذاك المحضر والكل في الخطب العميم الأكبر
قد هيّمت البابهم تهييما

---

(١) نفسه ٥٠٩/٧
(٢) نفسه ٥٠٧/٧
(٣) نفسه ٥٠٢/٧
(٤) نفسه ٤٤١/٧
(٥) نفسه ٤٤١/٧

وكما رأينا أنّ الشعراء طلبوا الشفاعة الأمة لجميع المسلمين فإن بعضهم سألها مرتين مرة عامة وأخرى خاصة ، استمع إلى ابن البراق يقول (١) :

ياغافراً لذنوبنا ياشافعاً في المهلكات الشوس من تبعاتها
واشفع له في توبة يصفو بها نفساً فتقلع عن قبيح سناتها

وبعد أن تفانى الشعراء في اظهار حبهم للرسول (عليه السلام) وتبارزوا في ذلك لافضاله الكثيرة ومقامه الرفيع من نفوسهم وقفوا موقف العاجز منه إمعاناً في اظهار حبهم لشخصه الكريم ،فأبو بكر التطيلي الغرناطي يشعر بتلبد ذهنه وعدم تمكنه من مدح الرسول هيبة واجلالاً ، وأين هو من مدح القرآن الكريم اياه (٢) :

إذا رمتُ مدحَ المصطفى شغفاً به تبلد ذهني هيبةً لمقامه
وأقطع ليلي ساهر الجفن مطرقاً هوى فيه أحلى من لذيذ منامه
إذا قال فيه الله جل جلاله «رؤوف رحيم» في سياق كلامه
فمن ذا يجاري الوحي والوحي معجز بمختلفيه نثره ونظامه

ويرى ابن الخبازة في أبيات تقدمت له ، نفسه ساهياً بمدح الخلق ، واذا كان المدح يؤدي إلى المعصية فإن مديحه سبيل إلى الطاعة (٣) ، ويرى أبو العباس أحمد بن محمد بن ميمون الأشعري في قصيدته «خلاصة الصفا في خصائص المصطفى» أنّ مدحه لايعني بحق الرسول الكريم ، وما يقدمه في قصيدته يمثل جهد المقل ليس إلا (٤):

مدحت رسول الله والمدح دونه ولو ملأ المُدّاح كل صحيفه
فماذا يقول العالمون وربهم كساه من الامداح اسبغ حُلّته
ولكن في جهد المقل لنفسه رجاء وحسن الظن بيت القصيده

في حين نجد أبا العلاء إدريس بن محمد الأنصاري يبمم المصطفى بالحلي ناظماً ، لكنه لايبلغ المعشار منه (٥) :

---

(١) الذيل والتكملة ٤٧٤/٦ ، ٤٨١
(٢) السحر والشعر ٩١ ،وهو من الشعراء الزاهدين اذ اقتصر قول الشعر في طريقة الزهد ،ينظر في ترجمته المغرب ٤٤٩/٢ ، برنامج شيوخ الرعيني ٢٠٢
(٣) ازهار الرياض ٣٨٤/٢ ،
(٤) الذيل والتكملة ٤٢٢/٢/١
(٥) نفح الطيب ٤٤٣/٧

بالمدح مجدّ المصطفى يممّته من حلي أوصافاً له نظمته
لم أبلغ المعشار إذا حكمته بَعضاً نسيت وبعضه ألهمته
قلّدته جيد الزمان نظيماً

ولم تقتصر قصيدة المديح النبوي على شخص الرسول الكريم انما تجاوزته إلى مدح آل البيت، والصحابة الكرام، يتجلى ذلك بوضوح في بعض ابيات قصيدة ابن البراق اذ انه أطال مكوثه عند ذكر العشرة المبشرين بالجنة، ذاكراً خلالهم الطيبة فمما قاله في الخلفاء الاربعة (١):

اقمارُ ملتنا وشهب سمائنا وذوو الخلال الغر من سرواتها
فَسريُّها صدّيقها وسنيها فاروقها الوضّاح عن عزماتها
واثيرها عثمان تالي وحيها ومزحزح الازمات عن ساداتها
وعليها في المكرمات عليّها رَبّ اختراط النصر في غزواتها

ومن اشهر شعراء المديح النبوي ابو القاسم العزفي محمد بن ابي العباس احمد بن محمد اللخمي، فقد اشتهرت اسرته بالمديح النبوي، وهو الذي اكمل كتاب « الدر المنظم في مولد النبي الاعظم» ومما قاله في آل بيت المصطفى (٢):

ذرّية المصطفى اني أحبكم وحبكم واجب في الدين مفترض
وحسبكم شرفاً في الدهر انكم خير البرية هذا ليس يعترض
ولست أطلب من حبي لكم ثمناً الا الشّفاعة فهو السؤل والغرض

وقد يتجاوز مديح آل البيت إلى مديح الاشراف المنتسبين لهم كما في ابيات ابي بكر محمد ابن ابي عامر بن حجاج الغافقي (٣).

واما معاني قصيدة المديح النبوي، فهي متقاربة في مجمل القصائد المدحية، لدرجة ساغت للمقري معها أن يمهد لقصيدة الشاعر بقصيدة شاعر آخر، حيث يقول بعد أن يورد مخمسة ابن الجنان: «وكثيراً ما كنت أنشد هذه القصيدة بالمغرب في مجالس التدريس واضيف

---

(١) الذيل والتكملة ٤٧٨/٦

(٢) ازهار الرياض ٣٧٧/٢ وقد وقعت على أبيات لصفي الدين الحلي (ت٧٥٠هـ) في مدح الرسول وصحابته في معجم الادباء ١١/١٢—١٢

(٣) تنظر الابيات في برنامج شيوخ الرعيني ١٩٦

إليها قبلها اخرى لبعض اهل المغرب الذين لهم في منازل الامداح النبوية مقيل وتعريس ، وهي قصيدة ميلادية كأنما لم ينظمها مؤلفها الا مقدمة لهذه القصيدة الفريدة (١)» . ثم يورد قصيدة الشاعر المغربي، ومن هنا تصدق مقولة الدكتور حكمة الاوسي «والقصائد التي قيلت في هذا الموضوع متشابهة مع بعضها في معناها بل وحتى في الفاظها» (٢) .

وفيما يتعلق بشكل قصيدة المديح النبوي، وجدنا أن جميع القصائد المدحية، تأتي قائمة لوحدها في وحدة موضوعية تامة، دون ان تدخل في موضوعات الشعر العربي الاخرى، وهي تأتي كذلك من غير استهلال، انما يدخل الشاعر في موضوعه مباشرة، باستثناء قصائد قليلة في ذلك كقصيدة ابن البراق الذي يمهد لها بموضوع هاتفة مصدورة تبث احزانها في خمسة وعشرين بيتاً، وبعدها ينتقل إلى موضوعه فيذكر أنّ ما جرّه اليه حبه للنبي ، أضعاف ما تبثه الحمامة من لوعاتها، والموضوع الوحيد الذي يتصل بالمديح النبوي هو قصيدة رحلة الحج، وفيما عداه من موضوعات يندر أن نقف على مديح للنبي الكريم ، وأكثر مانجده – ضمن قصيدة رحلة الحج من مديح نبوي يأتي لابن جبير الأندلسي وأبي بكر السلاوي ،في سياق الشوق إلى زيارته عليه الصلاة والسلام في قصائد سبقت الاشارة اليها .وأما ماورد ضمن قصائد سقوط المدن والممالك من ذكر للرسول الكريم فهو ليس بمديح وانما استحضار لشخصه الكريم ، واستمداد من مقامه وبأسه واستغاثة واستصراخ واحياناً بث للالم والشكوى :

تفاوتت القصيدة المدحية في عدد أبياتها ، بين المقطوعة التي لاتتجاوز خمسة أبيات والمطولة المترامية الأطراف ، وابرز شعراء المقطوعة المدحية ابن جبير الأندلسي ، وأبو زيد الفازازي وقد مرت بنا المطولات المدحية ،قصيدة ابن البراق في أربع وتسعين بيتاً،وصفها بعضهم بأنها : «ثقيلة الروح» (٣) وقصيدة ابن الخبازة في مئة واثنين وستين بيتاً ، وقد نصوا على أن قصيدة ابن ميمون الأشعري تزيد علي ثلثمائة وعشرين بيتاً ، ومخمسة ابن الجنان جاءت في تسع وعشرين مقطعاً ، ومطولة المغربي الذي عارض قصيدة الكلاعي الرائية في ثلثمائة وثمانية ابيات(٤)،وقصيدة السبتي الدالية التي نحا فيها منحى رائية الكلاعي في مئتين وواحد وعشرين

(١) نفح الطيب ٤٣٨/٧
(٢) الادب الاندلسي ٣٣٥
(٣) الاحاطة ٤٩٠/٢
(٤) فتح المتعال ٣٧٤ – ٣٩٠

بيتاً (١) ولعل الإطالة في أبيات القصيدة كانت غاية يقصدها الشاعر ، بقصد اظهار البراعة والجهد تقرباً من النبي الكريم .

ولقد كثرت المخمسات والمسدسات في قصيدة المديح النبوي والنوع الأول أشيع وأكثر ، وتأتي المخمسة غالباً مبنية على تسعة وعشرين حرفاً في تسعة وعشرين مقطعاً ، لالتزامهم حروف الهجاء في كل مقطع ، ولعل أبرع الشعراء في هذا مالك بن المرحل (ت ٦٩٩هـ) الذي الزم نفسه التزام الحرف في أول المقطع وآخره (٢) ، ومن أشهرهم أبو عبدالله محمد بن فرج السبتي الذي ألف كتابه «القطع المخمسة في مدح النعال المقدسة» ونقل منه المقري في فتح المتعال العديد من قصائده ، وهو الذي خمس قصيدة ابي الربيع بن سالم بن الكلاعي في تسعة مقاطع (٣). وقد مرّت بنا مخمسة ابن الجنان ومخمسة ابي العلاء أدريس بن محمد الأنصاري آنفاً ، ونفح الطيب يحفل بالعديد الآخر منها (٤). وتأتي أكثر المخمسات ملتزمة بقافية واحدة في ثلاثة اشطار يليها الشطران الرابع والخامس بقافية الميم ، وقد تأتي الاشطار الأربعة الاولى بقافية واحدة والخامس منها هو الميمي ، ويلتزم في الصورة الاولى الشطران الرابع والخامس وفي الصورة الثانية يلتزم الخامس في نهاية كل مقطع ، وعليه جاءت مخمسة أبي العلاء أدريس وأبي اسحاق ابراهيم بن سهل الاسرائيلي (٥) .

وأشهر المسدسات التي أوردها المقرى في نفحه قصيدتان لعلاء الدين محمد بن عفيف الحسني الزينبي ، وأخريان لابي عبد الله محمد بن ابي بكر العطار الجزائري (٦) ، وهما ممن لم استطع التعرف على ترجمته وعصره في كتب التراجم .

لقد شاع في قصائد المديح النبوي فضلا عن المخمسات والمسدسات ، المسمطات ومن ذلك مسمطة ابي الكرم جودي لقصيدة ابن البراق التي مطلعها (٧) :

يا مسبلاً من عينه عبراتها أشجتك هاتفة على أثلاتها

---

(١) ازهار الرياض ٣/٢٤٨ — ٢٦١

(٢) نفح الطيب ٧/٤٥٣

(٣) أزهار الرياض ٣/٢٢٦

(٤) للتعرف على المزيد من المخمسات ينظر : نفح الطيب ٧/٤٣٢ — ٤٧٠

(٥) ينظر نفح الطيب ٧/٤٤١، ٤٤٤

(٦) نفح الطيب ٧/٤٧٠ — ٤٨٥

(٧) الذيل والتكملة ٦/٤٦٩

أم شمتَ بارقة بعرض فلاتها « بالهضب هضب زرود او تلعاتها
شاقتكَ هاتفةَ على نغماتها »

والتسميط كالتخميس ، وفيه يضيف الشاعر ثلاثة أشطر الى أصل كل بيت من القصيدة التي يسمطها ويلتزم قافية صدر البيت في كل مقطع ، والقافية الأصلية للقصيدة المسمطة هي التي يبني عليها عمود القصيدة في الشطر الخامس .

كذلك ذاع التضمين في قصائد المديح النبوي ، ومن امثلته قصيدتان واحدة لحازم القرطاجني (ت٦٨٤هـ) والاخرى لابن جزي الكلبي الغرناطي (ت٧٤١هـ) ضمّنا فيه قصيدتي امرىء القيس ومطلع الاولى :

لعينيك قلّ ان زرت افضل مرسل «فقفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل»

ومطلع الثانية :

أقول لعزمي او لصالح اعمالي «الاعمّ صباحاً أيها الطلل البالي»

ونجد نمطا آخر في قصيدة المديح النبوي هو التذييل ، حيث يقف الشاعر على القصيدة فيعجب بها ويذيلها ، ومن ذلك تذييل ابي امية بن عفير لقصيدة على بن ابراهيم بن سعد الخير الانصاري في تمثال(فعل النبي) ، يوضح في تذييله ، غرض الشاعر وغايته في دعوته لتقبيل التمثال (١) .

وبعد المخمسات والمسدسات تأتي المعارضات ، ومن نماذجها قصيدة الكلاعي الرائية التي عارضها بعض المغاربة في قصيدة طويلة تعدادها ثلثمائة وثمانية ابيات ومطلعها (٢) :

يا ويح للصب ان يبدو له أثر من الحبيب يهيج أشواقه النظر

ونظير المعارضة في الشعر أن ينحو الشاعر منحى شاعر آخر ، فقدنحا السبتي منحى رائية الكلاعي بقصيدة مطلعها (٣) :

تبدّت لنا والشوق يقدح زنده بقلب سج لا وجد يشبه وجده

---

(١) تنظر القصيدتان في ازهار الرياض ١٧٨/٣ ، ديوان حازم القرطاجني ٨٩

(٢) الذيل والتكملة ١٨٩/١/٤

(٣) فتح المتعال ١٨٧

وأما الاوزان التي تطرح فيها قصيدة المديح النبوي فهي اكثر بحور الشعر العربي ، باستثناء بحر الكامل الذي حاول المقري أستقصاء القصائد التي جاءت عليه (١) ، وقد وجدت اكثر من خمس وعشرين قصيدة مدحية جاءت عليه ، وقصائد المولد النبوي في جملتها تأتي على هذا الوزن ، ولعل ذلك معزو الى ان اكثرهم ردد عبارة « صلوا عليه وسلموا تسليماً » والتي لا تستقيم الا على بحر الكامل ، ومن مجموع ثنتي عشرة قصيدة لابي زيد الفازازي في مدح الرسول ، تأتي خمس منها على بحر الكامل ثنتان منها في مجزوئه (٢).

ولم يلتزم الشعراء قافية ورويا معينين ، انما قصدوا النّظم في جميع حروف العربية بقصد التفنن واظهار البراعة في النظم ، واكثر المخمسات والمسدسات تبنى على قافية الميم أي ان الاشطر الرابع والخامس ، والخامس والسادس ، يلتزم حرف الميم ، ومع اللازمة تتردد العبارة الاثيرة إلى نفوسهم «صلوا عليه وسلموا تسليما» :

وقد لاحظت أن عدداً من الشعراء عمد إلى لزوم ما لا يلزم في قافية قصيدته لنفس الغرض السابق ، إمعاناً في اظهار البراعة والتفوق في مديح الرسول الكريم مما يشعر بمزيد الحب والاجلال ، لمن نظمت فيه القصيدة ، واكثر ما نجده في هذا الباب في ابيات ابن جبير الاندلسي وابي زيد الفازازي.

ومن عناصر التجربة الفنية في قصيدة الشعر توفر عنصر العاطفة فيها ، ومدى الصدق فيها ، وهو نابعٌ عن الاخلاص في خطاب الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، والتجرد عن الاطماع المادية التي قد تكون الدافع والحافز في مدائح الملوك ذوي الجاه والسلطان ، ولعل اكثر انواع شعر المديح النبوي تألقا في صدق العاطفة وحرارتها شعر الشوق والحنين إلى زيارة قبر الرسول الكريم والتبرك بآثاره الشريفة .

وشعر المديح النبوي هو أحد اصناف الشعر الديني الذي جادت فيه عواطفهم ، ومن هنا فمقولة المستشرق الاسباني بالنثيا لا تصدق فيه جملة وتفصيلا يقول : «اما عن شعرهم الديني ، فتنقصه حرارة العاطفة ، وهم ينتقلون فيه من الوعظ المبتذل إلى وجد الصوفية او الثيوصوفية دون تدرج او تمهيد» (٣).

---

(١) ازهار الرياض ٢٤٨/٣ – ٢٦١ نفح الطيب ٤٧٩/٧ .

(٢) تنظر قصائده في نفح الطيب ٥٠٧/٧ – ٥١٢

(٣) تاريخ الفكر الاندلسي ٤٦

وقد وقف عند هذه المقولة الدكتور محسن جمال الدين فوجد فيها جانباً من التجني، اذا اطلقت على العموم، والسبب في ذلك لديه: أن المحيط الاندلسي والبيئة التي عاشوا فيها، كانت تفرض عليهم التمسك في دينهم، والتوسل الحار اللاهب بشخصية نبيهم (صلى الله عليه وسلم) ناهيك بشدهم الرحلة إلى المشرق تبركاً ببيت الله ومجاورة لقبر رسوله الاعظم...؛ ما يعطينا الادلة الكثيرة على ذلك (١).

(١) مجلة البلاغ العدد ٤ سنة ١٩٦٧ ص٧٧ .

المصادر والمراجع

١ ــ ابن الابار ، حياته وكتبه ، د. عبد العزيز عبد المجيد ط معهد مولاي الحسن بالمغرب ١٩٥١ م .

٢ ــ الاحاطة في اخبار غرناطة ، لسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦هـ) تحقيق محمد عبد الله عنان حـ١ ــ ٣ ط مؤسسة الخانجي بالقاهرة ١٩٧٣ ــ ١٩٧٦م.

٣ ــ الأدب الأندلسي في عصر الموحدين ، د. حكمة الأوسي ط مؤسسة الخانجي بالقاهرة ١٩٧٦م .

٤ ــ الأدب المغربي ، محمد بن ثاويت الطنجي ، و محمد الصادق عفيفي ط دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٦٠م .

٥ ــ أزهار الرياض في أخبار عياض ، المقرى التلمساني (ت ١٠٤١هـ) تحقيق مصطفى السقا ، ابراهيم الأبياري ، عبد الحفيظ شلبي حـ١ ــ ٣ط لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٣٩م .

٦ ــ برنامج شيوخ الرعيني ، أبو الحسن علي بن محمد الرعيني الأشبيلي (ت ٦٦٦هـ) ، تحقيق ابراهيم شبوح دمشق ١٩٦٢م .

٧ ــ بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، ابن عميرة الضبي (ت ٥٥٩هـ) ط دار الكتاب العربي القاهرة ١٩٦٧ م .

٨ ــ التاريخ الأندلسي من الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة د. عبد الرحمن الحجي ، ط دار العلم دمشق ١٩٧٦م .

٩ ــ تاريخ الفكر الأندلسي ، بالنثيا ترجمة د. حسين مؤنس ط النهضة العربية ١٩٥٥م.

١٠ ــ التكملة لكتاب الصلة ، ابن الابار البلنسي (ت ٦٥٩هـ) ط العطار القاهرة ١٩٥٥م :

١١ ــ ابن جبير الأندلسي شاعراً ، منجد مصطفى بهجت ، مستل من مجلة آداب الرافدين ، العدد التاسع الموصل ١٩٧٨م :

١٢ ــ ديوان حازم القرطاجني ، تحقيق عثمان الكعاك ، دار الثقافة بيروت ١٩٦٤م :

١٣ – الذيل والتكملة ، ابن عبد الملك المراكشي (ت ٧٠٣هـ) :
السفر الاول بقسمين تحقيق محمد بن شريفة دار الثقافة بيروت ب : ت
السفر الخامس بقسمين تحقيق د. احسان عباس ، دار الثقافة بيروت ١٩٦٥ :
السفر السادس بمجلد واحد تحقيق د.احسان عباس ،دار الثقافة بيروت ١٩٦٥ :
١٤ – زاد المسافر وعزة محب الادب السافر ، صفوان بن إدريس النجيبي المرس (ت ٥٩٨هـ) بيروت ١٩٧٠ :
١٥ – السحر والشعر ، ابن الخطيب (ت ٧٧٦هـ) تحقيق ودراسة قدور ابراهيم عمار اطروحة ماجستير جامعة عين شمس ١٩٧٥ :
١٦ – فتح المتعال في مدح النعال ،المقرى التلمساني (ت ١٠٤١هـ)ط دار المعارف النظامية، الدكن ، الهند ١٣٣٤ :
١٧ – فهرسة ابن خير الأشبيلي (ت ٥٧٥هـ) تحقيق فرسشكه قداره مؤسسة الخانجي بالقاهرة ١٩٦٣ م :
١٨ – المطرب في اشعار أهل المغرب، ابن دحية تحقيق د. مصطفى عوض كريم ط مصر، الخرطوم ١٩٥٧ :
١٩ – المعجب في تلخيص أخبار المغرب ،عبد الواحد المراكشي تحقيق محمد سعيد الغربان ط المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية القاهرة ١٩٦٣ :
٢٠ – المغرب في حلى أهل المغرب ، ستة من بني سعيد آخرهم على بن موسى (ت ٦٧٢هـ) حـ١ – ٢ تحقيق د. شوقي ضيف .دار المعارف بمصر ١٩٦٤ م :
٢١ – المقتضب من كتاب تحفة القادم ، ابن الابار القضاعي (ت ٦٥٨هـ) اختيار ابي اسحق البلفيقي ،تحقيق ابراهيم الابياري ، الاميرية ، القاهرية ١٩٧٥ م :
٢٢ – النبوغ المغربي ، عبد الله كنون ط٣ دار الكتاب اللبناني بيروت سنة ١٩٧٥
٢٣ – نظم العقدين في مدح سيد الكونين لابن جابر الهواري مقالات نشرها د. محسن جمال الدين في مجلة البلاغ. «٣ ، ٥، ٨، ٩، ١٠» بغداد ١٩٦٧ :
٢٤ – نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقرى التلمساني (ت ١٠٤١ هـ) تحقيق الدكتور احسان عباس ط ١ – ٧ صادر بيروت ١٩٦٨ :